
ميريت
يوتوبيا
رواية
أحمد خالد توفيق

إهـــــــداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

يوتوبيا

يوتوبيا

رواية

أحمد خالد توفيق

الطبعة الثانية ٢٠٠٨.

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٧٣٩٣

الترقيم الدولي: 977-351-391-2

أحمد خالد توفيق

يوتوبيا

رواية

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٨

يوتوبيا المذكورة هنا موضع تخيلي، وكذلك الشخصيات التـــي تعيش فيها ومن حولها، وإن كان المؤلف يدرك يقيناً أن هذا المكان سيكون موجودًا عما قريب. أي تشابه للمكان والشخـــصيات مع أماكن وشخصيات (في الواقع الحالي) هو محض مصادفة غير مقصودة.

حقًا إنني أعيش في زمن أسود..
الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها..
الجبهة الصافية تفضح الخيانة..
والذي ما زال يضحك..
لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب ..
أي زمن هذا ؟

برتولت بريخت

الجزء الأول

الصياد

- ١ -

كأنـــه الملـــصق الـــشهير القديم لفيلم الفصيلة .. هذا ما جال بذهني وقتها ..

السبب هو أنني أعلق هذه الصورة فوق فراشي ..

ولـــيام دافو ينظر للسماء – التي لم يعد يفصله عنها شيء – رافعًـــا ذراعيه كأنه في صلاة أخيرة، وقد جثا على ركبتيه بعد ما مزقته الرصاصات .. عندما يصير الموت أكبر من الحياة ذاتها.. عندما يصير الموت ضربًا من الجمال الفني ..

المشهد كان مهيبًا خاصة أنه ليس على شاشة التلفزيون.. كل شيء حقيقي مروع قاس .. و..

وفاتن..

لا تنكرن هذا من فضلك..

رأيـــته وهـــو يـــتوقف وقد أنهكه التعب .. بفقر الدم والجوع اللذين يفتكان به لا يمكنه أن يخوض هذه المطاردة للنهاية.. رأيته ينحنـــي ليلـــصق كفيه بركبتيه طلبًا للهواء، ثم رأيته ينظر لأعلى بيـــنما الهليوكوبتر تدور حوله في تؤدة ودون قلق .. إن معها كل الوقت .. لا يوجد هدف أوضح من رجل مجرد من السلاح وسط رمـــال الصحراء .. رجل أنهكه الركض ...رجل أنهكه الجوع .. رجل أنهكه القنوط ....

لا تقاوم يا أحمق !... ما الذي تمنحك إياه لحظات أخرى من العيش مع الأغيار ؟.. ما الذي لم تحققه في سنواتك العشرين السابقة وتنوي أن تحققه لو ظللت حيًا ؟... فرارك هذا لا يختلف عن فرار الصرصور على جدار مطبخ، أو أميبا تنزلق تحت عدسة مجهر ... صرخة غريزة لا أكثر .. إنه تفاعل التحاشي الذي زرعته الطبيعة فيك، وعليك أن تتعلم كيف تهمله كي تظفر براحة استحققتها...

انطلقت الرشاشات فنظر لأعلى .. نعم .. هذه الطلقات من أجلك أنت ..

ترسم ذلك الخط الطويل على الرمال .. الخط الذي يمر بك أنت ...

وليام دافو في ملصق الفصيلة ...

خطر ببالي إن مخرجي السينما حمقى عندما يظهرون المصاب بالرصاص يسقط على الأرض فورًا .. كلا .. لقد نظر لأعلى وبدا كأنه يريد أن يقول شيئًا ثم سقط على الأرض ووجهه في الرمال ..

شهقت جرمينال رعبًا لكني لمحت في عينيها ذلك البريق .. بريق إثارة لا شك فيها .. صدرها يعلو ويهبط .. وتلامست أصابعنا حيث وقفنا هناك خلف السلك نرمق الهليوكوبتر تتخفض مبعثرة سحب الرمال من حولها، ثم الحارس الأمريكي يثب منها ليتفحص الجثة .. يركلها بطرف حذائه ثم ينحني ليتحسس الشريان السباتي ..

يرفع سبابته لأعلى ويصيح: - "!! Lovely"

ثم يركض نحو الطائرة وفي ثوان يرتفع الوحش الأسطوري بعـد مـا أنهـى مهمة الصيد ... كل هؤلاء الحراس من رجال (المارينـز) المـتقاعدين ولا أعرف سبب ذلك، لكنهم بالتأكيد لا يفتقرون إلى اللياقة البدنية..

شهقت جرمينال رَعبًا ..

شهقت جرمينال نشوة ...

الموت .. اللعبة العظمى التي لم نجربها بعد .....

أقف أمام المرآة ..

أتأكد من أن شعري حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة .. أصلع على جانبي الرأس والخصلة البنفسجية العالية في المنتصف مـثل ديـك بري ثائر.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودوو .. لست عابد شيطان .. فـي الواقـع أنـا لا أصدق وجود شيء على الإطلاق، لكن هذه الأشياء تبدو مثيرة على صدري ...

الوشـم كـذلك غريب .. إنه يروق للفتيات هنا .. السروال المصمم بعناية بحيث يظهرك في مظهر أكثر فحولة، وهو قصير يظهـر ربلتـي الساقين .. أحيانا أمارس الحفاء لكن ليس اليوم .. أعلق القرط الجديد في غضروف أنفي والقرط الآخر في حاجبي.. لـن أضـع حلية اللسان اليوم .. ثم بصبر أقوم بتلوين أسناني .. اللـون الأحمر للنابين والأصفر للقواطع .. الأزرق للضروس ..

هذه الصبغة ممتازة ولا تزول بسهولة .. يقولون إنها غير سامة.. من يبالي بهذا ؟.. ليتها كانت سامة ..

أضع العدسات الملتصقة الجديدة التي تجعل لون العينين أبيض .. تأثير مثير للفتيات أن ترمقهن بعيون مبيضة كأنك الموت .. هذا يقهرهن فعلاً...

أتأكد من أن الجرح على جبيني مفتوح .. أعالج حافته بعناية ليبدو داميًا .. إن الجروح مثيرة بلا شك .. ظهرت هذه الموضة منذ عامين وصار لها متخصصون .. المهم أن يبدو الجرح بشعًا قدر الإمكان ويبدو صناعيًا كذلك حتى لا يشمئز من يراه .. هذا فن حقيقي ..

هذا الجرح أجراه لي طبيب إسرائيلي متخصص في هذا الفن.. يقول إنه درسه في نيويورك .. كان اسمه (إيلي)، وكان شابًا ظريفًا .. قال لي إن أباه أصيب بجرح مماثل في حرب عام ١٩٧٣ مع المصريين، وسألني إن كنت أذكر شيئًا عن الموضوع .. قلت له إن لي عمًا توفي في هذه الحرب، لكني لا أعرف التفاصيل ... هذه أمور مر عليها خمسون عامًا ... لا أعرف لماذا – في حقبة ما – كان المصريون يكرهون الإسرائيليين ؟، لكني لا أهتم بفهم هذه الأمور .. ربما ذهبت للحرب لو طلب مني هذا لسبب واحد هو كسر روتين الحياة .. أن تمشي وسط طلقات الرصاص في صحراء تتناثر فيها جثث الموتى !... كم أن هذا رائع ..

* * *

في (يوتوبيا)....

حـيث يتوارى الموت خلف الأسلاك الشائكة، فلا يصير إلا لعبة يحلم بها المراهقون ...

(يوتوبيا)...

ستة عشر عامًا من عمرك وأنت لا تنتمي إلا إلى يوتوبيا .. أنـت مـواطن (يوتـوباوي) ذوبتك الحياة المترفة وذوبك الملل، فـصرت لا تعـرف الأمريكي من المصري من الإسرائيلي ... صـرت لا تعـرف نفـسك من الآخرين .. لولا بقايا الشهوة في عروقك لما عرفت الذكر من الأنثى ...

مـن أنـا ؟.. دعنا من الأسماء .. ما قيمة الأسماء عندما لا تختلف عن أي واحد آخر ؟

قال لي سالم بيه:

ــ"أنت تقرأ كثيرًا .. أنت مجنون .."

قلت له إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي. في الماضي – تصور هذا – كانوا يقرءون من أجل اكتساب الوعي.

أنا لم أعد طفلاً... لقد تجاوزت السادسة عشرة .. قرأت كل كتاب وقع في يدي حتى اكتفيت.. إن الكتب سلعة نادرة هنا لكني وجـدت كنزًا منها عند (سالم) بيه رئيس تحرير تلك الجريدة الذي يعـيش على بعد مائتي متر من بيتي . لديه كتب كثيرة جدًا، وقد بدأت القراءة على سبيل التحدي لأن (مراد) لا يقرأ وكذا (لارين). من الجميل أن تفعل شيئًا لا يطيقانه ..

لسبب ما عشقت هذه الطريقة ووجدت فيها عوالم سحرية أنفذ إلـيها كلمـا أردت، وكان سالم بيه يرمقني في دهشة كلما زرت مكتبته ويقول:

ــ"صدقني يا بني .. لا شيء في هذه الكتب يهم .. أنا أقتنيها لأنها تجعل منظر المكتب أنيقًا، لكن الحياة هي المعلم الوحيد لك"

لـم أكـن أرد .. فقـط كنت آخذ منه عشرة كتب في المرة، وأناولـه بعـض شرائط (الليبيدافرو) التي سرقتها من أبي. سالم أرمـل، لـم يتزوج ثانية .. هكذا يمكنني أن أخمن ما ينوي عمله بالليبيدافرو. وبهذا قرأت قبل سن السادسة عشرة معظم ما وجدته مـن كتب فلسفة ودين وروايات .. لم أحب قط قراءة السياسة ولم أهـتم بهـا وكـذلك الـتاريخ .. قـرأت الكثير كذلك على شبكة الإنتـرنت، ويبدو أنني قرأت أكثر من اللازم لأنني لم أعد أطيق رؤية كتاب آخر .. لهذا السبب أنا أكثر ثقافة من أقراني بلا شك..

في سني الصغيرة نسبيًا هذه كونت قناعة لا بأس بها هي انه لا جديد تحت الشمس ولا يوجد شيء واحد يمكن تعلمه بعد هذا .. هـناك خلـل اجتماعـي أدى إلى ما نحن فيه، لكنه خلل يجب أن يـستمر .. كل من يحاول الإصلاح يجازف بأن نفقد كل شيء . هـذا وضـع شـبيه بالمكارثية في الولايات المتحدة، عندما شعر الأمـريكان فـي القـرن الماضي أن عليهم أن يقهروا كل نزعة يسارية لأنها تهدد كيانهم ذاته .. هذا ما حكاه لي سالم بيه ..

عاشـرت كـل فتاة راقت لي، وجربت كل أنواع المخدرات حتـى (الفلوجـستين) الجديد الوارد من الدانمرك، الذي له رائحة

الليمون .. يقولون إنه باهظ الثمن لكن ما معنى باهظ الثمن ؟.. هذه الكلمة نلوكها بفمنا دون أن نعرف معناها .. ما اعرفه هو أنه يأخذني بعيدًا بمجرد أن تضع قطرة منه على جلد ساعدك، وعندها ترى تلك النيران الفاتنة التي استمد منها اسمه .. تفيق بعد ساعات لتدرك أنك بحاجة للمزيد ..

كنت قد بدأت تجاربي بالماريجوانا ... لا بأس بها .. جربت عقار (إكستازي) وجربت LSD .. مشكلة هذا الأخير هي أنك بالفعل لا تضمن أن تظل حيًا حتى تفيق .. من كل مجموعة لابد من واحد لا يتعاطاه كي يراقب الآخرين، ويطلقون عليه اسم (حارس الرحلة) .. عندما تتسلل الأيوفوريا إلى عقولهم يكون الوثب من الشرفة أو إشعال النار في النفس أو التحديق في قرص الشمس حتى العمى أمورًا منطقية جدًا ... هذا مثير لكني لا أحب أن أصير كفيفًا ما تبقى لي من عمر ...

جربت عقاقير كثيرة جدًا .. نبتاعها من الحراس الأمريكيين، ولكن مشكلة المخدرات هي أنها تفقد إثارتها ما دامت متاحة .. ثمة جزء مهم من اللعبة هو التجريم والندرة.. أن تتعاطاها خائفًا .. تتعاطاها قلقًا بصدد الجرعة التالية .. عندما تتاح المخدرات في كل وقت تفقد أية لذة لها ... تصير مملة سوقية ..

لم يعتد أبواي مراقبتي بهذا الصدد ... لا احد يتدخل في حياتي على كل حال .. من حقي أن أتعاطى أي شيء بأية كمية وبأي ثمن، وإلا فما كان عليهما أن ينجباني ...

ليست الأبوة عملاً عظيمًا لهذا الحد .. بوسعي أن أكون أبًا لألف ابن لو أعطيتني ألف امرأة، ولأكونن لك شاكرًا ...

اليوم أخبرت (لارين) أن (سوزان) حبلى ...

لقد صار هذا روتينا في حياتنا .. لا أعرف سبب الخصوبة التي رزقتني بها الطبيعة .. أبي لم ينجب سواي ولا أعتقد أنه كان يقدر على إنجاب آخرين، لكني جئت الكون كارثة حقيقية .. ألمس الفتاة فتأتيني بعد شهر لتقول إن الأعراض زارتها .. ما من فتاة فوق الثانية عشرة هنا لم تجرب هذه الأعراض وتألفها .. والنتيجة واحدة على كل حال .. سوف آخذ من لارين شيكًا وأعطيه للفتاة .. والفتاة سوف تقصد المركز الطبي لتتخلص من هذا الكابوس ... جراحة يوم واحد تنتهي سريعًا . فقط تضطر الفتاة للحياة بلا جنس لمدة شهرين وهذا ممل بحق ...

(سوزان) .. (كاتي)... (مايا)... (جرمينال)... لكني أفضل الأخيرة لسبب لا أدريه .. ليس الحب طبعًا .. مثيرة جنسيًا ؟.. ربما .. لكني لم أعد أعرف إن كانت الفتاة مثيرة أم لا لأنهن يتشابهن في كل شيء..

قالت لي لارين في ضيق:

ـــ"ألا تفعل شيئًا آخر بحياتك سوى النوم مع الفتيات ؟.. لقد صار هذا مملاً..."

قلت وانا أفرد ساقي على المنضدة أمامي:

ـــ"ربما كنت شهوانيًا كالخنازير.. هذا ليس ذنبي.. إنها الهرمونات"

ـــ"ليت الأمر كذلك، لكني بالفعل لا أتصورك تشعر باشتهاء أو رغبة .. أنت تفعل هذا بداعي الملل لا أكثر .."

قلت بذات اللهجة:

ــ"ربما كنت ملولاً .. هذا ليس ذنبي كذلك"

ومـــاذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية ؟.. تنام .. تتعاطـــى المخـــدرات .. تأكل حتى يزهق الطعام أنفاسك .. تقيء حتى تتمكن من معاودة لذة الأكل ... تمارس الجنس (من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيًا ساديًا).. لو كـــنت تعـــرف طـــريقة أخـــرى يمارس بها المرء حياته فلسوف يسعدني أن تقولها ..

أنا وجدت طريقة .....

أنـــا لم أعد طفلاً كما قلت لك.. (رامي) خاض تجربة الصيد ومعهـــا ذاق الكثيـــر من المرح.. (شادي) فعلها .. (أكمل) جربها ولـــم يـــستطع أن يخفي شيئًا عنا .. لقد عرض علينا التذكار الذي جلـــبه مـــن هناك، ويبدو أنه كان تحت تأثير البانجو، ذلك المخدر الـــرديء الـــذي كانوا يتعاطونه في أوائل القرن .. طبعًا في العام ٢٠٢٠ صار الفلوجستين هو اسم اللعبة ..

قررت أن أجرب بنفسي ..

إنهـــا (يوتوبيا)... حيث يضنيك البحث عن طريقة تزجي بها كل دقيقة من حياتك ....

-٢-

أنا أعرف لماذا فعلها (راسم)...

ستة عشر عامًا .. وقرون من الخبرات المتراكمة ..

مثل أباطرة الرومان قد جربتُ كل شيء وعرفتُ كل شيء.. ليس هناك من جديد يثير فضولك أو حماسك في (يوتوبيا) .. لا شيء يتغير .. أحيانًا يخيل لي أننا معتقلون وأن الذين بالخارج هم الأحرار .. يذكرك الأمر بمعسكرات الاعتقال النازية التي تراها في أفلام الحرب ..

(يوتوبيا)... المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج، والتي صارت تحوي كل شيء يريدونه ..

يمكنك أن ترى معي معالمها.. البوابات العملاقة .. السلك المكهرب .. دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملين فيها من (مارينز) متقاعدين .. أحيانًا يحاول أحد الفقراء التسلل للداخل من دون تصريح، فتلاحقه طائرة الهليوكوبتر وتقتله كما حدث في ذلك المشهد الذي لا يفارق خيالي..

بعد هذا منطقة الحدائق .. منطقة المدارس المخصصة لإقناع الآبـــاء أنهم ما زالوا كذلك.. منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مـــسجد وكنيسة ومعبد يهودي .. البعض هنا ما زال مصرًا على أن يخاطـــب ذاتًا عليا لا يراها، ولكن جيل الشباب قد تخلص من هـــذه العادة على كل حال .. أعتقد أن سبب تشبث الكبار بذلك هو خـــشيتهم من أن يفقدوا كل شيء في لحظة .. أن يضيع التميز .. أن يجدوا أنفسهم في الخارج . إنهم لم يشعروا بعد بأنهم يستحقون مـــا هم فيه، بينما جيل الأبناء جاء الدنيا معتبرًا أن كل شيء من حقـــه. الكـــبار على كل حال قد كفوا عن نصح أبنائهم بأن يحذوا حذوهم .

هـــناك سبب آخر مهم في رأيي، هو ولع الكبار بأن يجمعوا بـــين طابعـــي الثراء والورع .. الثراء والورع ثنائي محفور كما يـــبدو فـــي عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور. صورة الحاج (عـــبد الـــسميع) النازل من الطائرة العائدة من الحجاز، والعباءة الواسعة غالية الثمن على كتفيه وهو يوزع المال باليمين والشمال، وعلـــى وجهـــه ابتسامة وقور متئدة. رائحة عطره الثمين الفاغم ومسبحته الذهبية .. يبدو أن هذه الصورة محفورة في أذهان آبائنا فعلاً. أنا قرأت في الأديان قليلاً، وارتبطت فكرة الزهد بالورع في ذهنـــي، دعك من أننا نعرف بعضنا .. كل هذا الورع لن يقنعني بأنهم لا يعاقرون الخمور ويغتصبون نساء الأغيار ورجالهم طيلة الـــوقت .. لقد صنعوا ثرواتهم من لحم الأغيار وأحلامهم وآمالهم

وكبريائهم وصحتهم، لهذا يبدو لي ما يقومون به غريبًا لكنه شأنهم على كل حال.

منطقة المولات .. هنا يمكنك أن تبتاع الفلوجستين بشكل غير رسمي من بعض رجال الأمن .. ثم ترى القصور .. قصر (علوي) بك ملك الحديد .. قصر (عدنان) بك ملك اللحوم .. قصر أبي ملك الدواء.. ثم المطار الداخلي .. هناك مطار طبعًا حتى لا تضطر للخروج .. في الماضي كان يسيطر على قومي هاجس الهرب للمطار لو أن الآخرين بالخارج ثاروا .. رحلة المطار ستكون شاقة ومريعة وخطرة .. سوف يعترض الأغيار طريق السيارات ويمزقون من فيها .. أنا أعرف هذه الأمور لأنني أقرأ كثيرًا .. القصص كثيرة بدءًا بالثورة الفرنسية حينما جاب الرعاع شوارع باريس وهم يعلقون ثديي الأميرة (دي لامبال) على رمحين، وانتهاء بالثورة الإيرانية في سبعينات القرن العشرين؛ عندما وجد مدير (السافاك) – على ما أذكر – سيارته محمولة فوق الأعناق وهو فيها، من ثم لم يجد حلاً إلا أن يدس المسدس في فمه ويضغط الزناد .. رباه !... حتى وأنا أكتب هذه الكلمات شعرت بقشعريرة لذة !... مسدس في فمك .. معدن بارد .. وضغطة تنهي كل شيء !..

خشية من رحلة المطار هذه قرر قومي أن يبنوا مطاراتهم الخاصة داخل مجتمعاتهم .. مع الوقت لم يعد هناك خطر من الثورة، لكن المطارات ظلت في مكانها على سبيل الترف ..

عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأن التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودًا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والمللٍ والرتابة .. حتى إفراغ مثانتك في حوض المطبخ يبدو متعقلاً مملاً...

المجلـــس .. دخــــان التبغ ينعقد .. المكتب العملاق في بناية الاتحــــاد، ونظـــرة الحكمـــة في عيون الكبار ... دقات الساعة .. كلمات .. كلمات .. سمعتها حتى لم تعد ذات معنى ..

*   *   *

ــ"نحن أسرة واحدة .. الخ ... لسنا مثل الأغيار ... الخ ....

للمرة الألف ...

هـــو ذا (راسم) يتظاهر بالمبالاة .. يمزجها بالخجل والندم .. أتحـــدى أن تجـــد عاطفـــة واحـــدة سبيلها إلى هذا الوجه الميت المتـــصلب .. عيـــنان ميتتان تذكرانك بعيون القتلة في ذلك العالم الخارجـــي عندما تقتنصهم عدسات الكاميرا .. رجل يقتل زوجته وعـــشيقها ثم يجلس على المقهى .. امرأة تقتل طفلة من أجل قرط لا يـــساوي أكثر من مائة جنيه .. ثم تظهر الصورة في صفحات الحوادث .. عندها سوف ترى هاتين العينين ..

لكنه كذلك ــ راسم – يتكلم .. الأحمق يتكلم:

ــ"حقًا لا أعرف ما دهاني كي ......"

للمرة المليون ....

يقـــول الحكيم الأكبر بصوت رنان يروق له شخصيًا من دون شك:

ـ"نحن لا نقحم أي طرف في مشاكلنا .. سوف يتعهد (عزام بك) بدفع ثمن الـ ....الخ .. ابنك هو ابني والعكس .. الخ ...."

و(عزام بك) يتعهد في وقار بدفع ثمن الـ ...... وهو يداعب حبيبات مسبحته الذهبية ...

جلسة عائلية تضم علية القوم في يوتوبيا، فهذا المجتمع قد أفرز قوانينه الخاصة ومحاكمه. هناك شاب قد أخطأ أو فعل ما يوجب حنق الكبار عليه .. الأخطاء هنا هي أن تدمر الملكية الفردية لآخر من يوتوبيا أو تسطو عليها .. (راسم) قد أفرط في الشراب فدمر جزءًا من مول (إليت) الخاص بمصطفى بك .. ربما سرق شيئًا .. لا أحد بحاجة للسرقة، لكنك بحاجة إلى إثارة وتوتر وإثم السرقة .. الكلبتومانيا أو داء الولع بالسرقة هو سبب أكثر الجرائم هنا، والباقي يحدث في لحظة سكر بين أصدقاء لم يعودوا كذلك ... لحظة جنون ..

هذه النزاعات تتم تسويتها في مجالس مشابهة .. وعامة يكون التفاهم حاضرًا والاستعداد للترضية متوافرًا .. لا أحد يريد للخلافات أن تخرج من يوتوبيا ..

الإثارة ..

الإثم ..

التعدي ..

خرق القواعد ..

التحدي ..

كسر التابو ...

المشاغبة ..

المخالفة ..

الهدم ..

التوتر ..

الأدرينالين ..

التغيير ..

التمرد ..

الانحلال ..

الصدمة ..

التميز ..

الدهشة ..

هذا هو اسم اللعبة ..

لأسباب كهذه وفي ليلة كهذه نام (راسم) مستسلمًا وترك لثلاثة من رفاقه أن يفعلوا به ما يشاءون ..

لأسباب كهذه يستحضرون الأرواح بلا توقف .. هي ليست أرواحًا يا حمقى .. إنه عقلكم الباطن يعبث بكم عن طريق ما يدعى بالـ ideomotor effect . لهذا يتحرك لوح الويجا لأنكم تريدون هذا..

ولأسباب كهذه يعبثون في المقابر ليلاً.. (أكمل) تحدث عن النكروفيليا أو مضاجعة الموتى، لكن الأمر لم يبد لي مغريًا وأعتقد أنك توافقني ..

لأسباب كهذه لا تستعصي أية فتاة عليك هنا أكثر من ثلاثة أيام ....وعندما تخضع لك لن تصدق مدى ما هي على استعداد لقبوله بسبب السأم .. لكن هذا لا يثير انبهارك ...

عندما تخترق آخر حدود التعقل تشعر بأن التعقل يتمدد ليضم لنفسه حدودًا أخرى يسيطر عليها الاعتياد والملل والرتابة .....

لأسباب كهذه أريد أن أجرب الخبرة العظمى ...

* * *

ظلام الليل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار .. أعرف أنني أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكن (جابر) يمشي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

* * *

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلق ذقني .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمزق كل هذا بالشوكة .. ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتثاءب .. أضحك .. أبصق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس اصبعي في حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي على البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويسكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

أريكــة .. أتقلــب على البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعــيات يوتوبــيا ... كل مستعمرة لها جريدتها الخاصة لكن هــناك جــرائد عامــة لا تــستطيع قراءتها من فرط ما فيها من سخف.. أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات على جلدي .. أنتــشي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمشي عاريًا في الــردهة .. ألــبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحم شعارات تقــول: اقــتلوا البيض .. لا أعرف معنى هذا ولا من هم البيض لكنهم هكذا يفعلون في السينما .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم.. الإيقــاع الجديــد الذي ظهر منذ عام .. الكبار يشعرون أنه مجرد صراخ مجنون ويترحمون على إيقاعي الهيفي ميتال والديث ميتال الراقيين اللذين اندثرا .. أرقص .. أقيء .. آكل من جديد ..

ســاعة واحــدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

* * *

في يوتوبيا ما زالت الأم هي الأم .. لا يمكنك التخلص منها

(لاريــن) عائدة من المول حاملة عدة أكياس تحوي ما نحتاج له .. أشياء تؤكل وتشرب وتدهن وتشم وتدهن تحت الإبط وتطلى بها الأظفار .. أعرف أن أكثر ما ابتاعته لا حاجة لنا به .. سوى نتخلص من أكثره .. إنه الملل .. إنه الإحباط .. لا أعرف الكثير عن حياتها الجنسية، لكني أعتقد أن مراد لم ينم معها منذ قرون .. لابــد أنه ملها إلى درجة أن الليبيدافرو ذاته لم يعد مجديًا معها.. عــندما لا يــضاجعك أحــد فأنت تبتاع أشياء لست بحاجة لها ..

عــندما لا يــضاجعك أحد فأنت تتعاطى المخدرات خلسة وتشرب الكثير من الخمر .. عندما لا يضاجعك أحد فأنت تتدخل في أمور الآخرين .. قالت شيئًا عن القيء على البساط وطلبت من الخادمة أن تــنظفه .. قالت إن الفلوجستين سوف يقتلني .. قالت إنني أبدد قواي .. قالت . قالت ....

بلا مقدمات قلت لها:

ـ"أنا راغب في تجربة الصيد .."

شهقتْ ......

قالت في ذعر وقد اتسعت عيناها:

ـــ"هــل ينقصك شيء ؟.. معك من المال ما يكفي لتشتري يوتوبيا كلها .."

ـ"وما حولها .."

ـ"لديك من الفتيات ما يشبع شهوات سلطان فحل من سلاطين ألف ليلة وليلة.."

ـ"والفتيان أيضًا.."

ـــ"لديك من وسائل التسلية ما يسري عن جيش من اليتامى الباكين"

ـ"وأحفادهم كذلك .."

ـ"إذن ما المشكلة ؟"

ـ"المشكلة هي هذا كله .. لدي كل شيء.. حان وقت الشيء الوحيد الذي لم أجربه ولم أظفر به .."

قالت في هستيريا:

ـــ"لو عدت للكلام في هذا الموضوع سأخبر أباك!"
(مـــراد) ليس هنا .. إنه في سويسرا يراجع أرقام حساباته .. هـــذا نشاط محمود على كل حال لأن هذا يعني انه سيضاعف ما أنفقـــه على الفلوجستين .. أحيانًا أتمنى ألا يضيع وقته ويرسل لنا النقود من الخارج ..
قلت لها في تحد:
ــ"(مراد) لا يتدخل في شئوني.. هو أذكى من هذا .."
قالت وهي تلوح بإصبعها في وجهي:
ـــــ"للمرة الألف .. اسمه بالنسبة لك (بابا) وليس (مراد).. أنا أســـمح لـــك بأن تناديني باسمي بدلاً من كلمة (ماما) لكي أحتفظ بـــصداقتك، لكن هناك حدودًا يجب ألا تتجاوزها ... وأنا لن اسمح لك بهذا .."
لكنك تدرك على الفور أنها ليست جادة ...
كـــل هـــذه الأعوام واسمه (مراد).. لا يمكن أن تغير هذا في لحظة لمجرد أنها قررت أن تلعب دور الأم الحازمة ...
لارين لن تقبل لأنها تريد التظاهر بأنها لا تقبل ..
مراد لن يقبل لأنه يجب ألا يقبل ...
إذن ...؟

-٣-

عندما تنفتح المقابر وتخرج الشياطين ..
عندما تتناثر جماجم الأطفال في السهول ..
عندما تتلوث أجنحة الملائكة بالدم، وتمارس سندريلا البغاء
عندما يعلن بعلزبول أن الحين قد حان ..
عندها فقط يمكنني أن أغمض عيني مستريحًا ...
وأموت .....

من أغاني الأورجازم

* * *

تندفع السيارة التي تحمل راسم وشادي وريري بسرعة جنونية .. تندفع بسرعة ثم تتوقف بفرملة مفاجئة تجعلها تدور كالنحلة حول نفسها ..

هنا تندفع نحوها السيارة الفيراري التي تخص ماهي .. لو اصطدمت بها لشطرتها نصفين ... لكن ماهي تجذب فرملة اليد في آخر لحظة لتدور حول نفسها مع عويل تسمعه يوتوبيا كلها.. يا بنت يا ماهي!...يدير راسم محرك سيارته ويندفع فيوشك على دهم واحد من الأغيار العاملين هنا، لكن الأحمق وثب على الرصيف المرتفع ..

لسبب ما لا أفهمه يصر هؤلاء على أن يعيشوا .. فعلاً لا أمزح هنا أو أبالغ. لو كنت من الأغيار لتركت عجلات السيارة تمر فوق أحشائي.

كانت ماهي قد فرغت من دورتها فانطلقت تلاحق سيارة راسم .. على الأرجح ستدمر السيارتان اليوم .. لكن المشكلة هي أننا لا نموت .. لا أعني أننا خالدون لكننا صرنا أكبر من المرض والحوادث .. الأغيار يمرضون ويذهبون للعلاج في المستشفى، فتنقلب بهم السيارة التي ما زالت تعمل بالكيروسين في الترعة أو تصطدم بشجرة .. ليت الموت متاح بهذه السهولة هنا !.. إذن لكانت الإثارة عظمى ... لا أعرف السبب لكن الحوادث نادرة عندنا وعندما تقع لا تقتل أحدًا ..

من حين لآخر ترى مطاردة عنيفة بين سيارات الشباب .. غالبًا ما تنقلب سيارة أو اثنتان وهذا يضفي إثارة غير عادية على الحياة، لكنك للأسف لا تستطيع قلب سيارة كل ساعة في اليوم...

لماذا لا ننتحر ؟.. لا أعرف .. الانتحار يبدو سوقيًا و(بلدي) جدًا .. يذكرك بكل هذا السخف عن الأغيار .. الفتى الفاشل في حبه يحرق نفسه .. يا للسوقية ..!.. كيروسين وضوء خافت، وحي شعبي ودجاج .. بالذات الدجاج ! .. كل هذا يجعل معدتي تتقلص.. الأب الذي فشل في إطعام أطفاله .. الفتاة التي تبتلع الأسبيرين .. نحن أكبر وأرقى من هذا الهراء .. لابد أن يكون الموت أنيقًا مسرحيًا..

مـــوتك وموت الآخرين متساويان .. إذن فليمت الآخرون .. على الأقل يمكنك أن تراهم وهم يموتون بدلاً من أن يروك هم ..

* * *

أقــدم لك (مايك رودجرز) قائد رجال الأمن .. رجل أمريكي من ميسوري لطيف المعشر له شارب أشقر رفيع.. قصّة (الطاقم) crew cut المميزة والعضلات البارزة وطرف الفانلة الخضراء الــزيتية البارز من السترة. معه أستمتع بالكلام بالعامية الأمريكية ذات اللكــنة الريفية الممطوطة كأنه خوار بقرة كسول ترعى في مرج، مع استعمال الكثير من الشتائم البذيئة التي تضحكه .

(مايك) كان من المارينز، وقد حارب في فيتنام في أوائل هذا القــرن .. لا .. آسف .. حارب في العراق .. أخلط بين العراق وفيتــنام كثيرًا فهما بلدان بعيدان قصيان كانت للأمريكان تجارب قاسية فيهما .. قال لي ذات مرة ونحن نتعاطى الفلوجستين:

ـــ"كانت غلطتنا في العراق أننا تواجدنا وسط الناس أكثر من الـــلازم .. ســـرعان مـــا صححنا هذا الخطأ وانسحبنا من المدن لنكثف وجودنا في قواعد مغلقة محصنة حول منابع النفط .."

ـــ"معلوماتي أنكم هزمتم في العراق .."

ضحك كثيرًا ثم استجمع أنفاسه وقال:

ـــــــ"أنـــت تـــتكلم مـــثل الأوروبيين .. بدأنا الحرب للإطاحة بالطاغية والسيطرة على النفط وتحويل ذلك البلد الغني إلى أشلاء .. حسن .. فعلنا هذا كله حرفيًا فهل يوجد اسم آخر للنصر ؟"

ـــ"هل كان النفط بهذه الأهمية ؟"

ــــ"كــان .. كــم من حروب خضناها بسببه .. !.. ثم ظهر البايــرول فجأة من سماء صافية ..ذلك الكيميائي الأمريكي الذي توصل له عام ٢٠١٠ نال جائزة نوبل .. هنا فقط أمكننا أن ننسى الشرق الأوسط وأن نخرج ألسنتنا لشيوخ البترول ونخبرهم برأينا الحقيقــي فــيهم .. يمكــنهم أن يــشربوا بترولهم لو أرادوا، لكن الحصول على البايرول له ثمن ..!"

ـ"كان هذا عندما ابتعتم كل الآثار المصرية ؟"

ــــ"نعم .. لم يكن لدى المصريين ما يُباع سوى الماضي وقد اشتريناه، ودفعنا ثمنه بالبايرول الذي احتكرته يوتوبيا والمجتمعات المماثلة.. عقد لمدة خمسين سنة يكفل لكم البايرول اللازم للحياة.. كــيف تحسب سياراتكم وطائراتكم هذه تتحرك ؟... كل السيارات والطائــرات تتحــرك بالبايــرول منذ عشرة أعوام .. السيارات والمحــركات التي تتحرك بالبترول قد انتهى عهدها أو كاد .. لقد صار البترول رخيصًا كالماء، لكن المشكلة هي ندرة الآلات التي تعمل به !"

لــم يكن هذا الدرس التاريخي يعنيني في شيء ... لا يهمني كيف كانت الأمور ولا كيف صرنا ما نحن عليه .. ما يعنيني هو ما نحن الآن وما سنكون ...

نحن الآن بصدد الخدمة الأهم التي سيقدمها لي ....

ســألته عمــا إذا كــان بوسعي أن أجرب الصيد.. قدمت له أسبابي التي تتلخص في ثلاث نقاط: الملل ثم الملل ثم الملل ..

تغيـــر أســـلوبه ووضع حاجز الكلفة الزجاجي الرسمي بيننا وقال في حزم:

ــــــ"مــــستحيل .. ولو حاولت لمنعتك .. إن الظروف خطيرة هذه الأيام والمغامرة غير مأمونة"

قلت في ضيق:

ــــــ"مـــنذ ولدت تقولون إن الظروف خطيرة هذه الأيام.. لا شـــيء يحـــدث .. هؤلاء الذين خارج الأسوار خراف لا أكثر .. صدقني"

قال وهو يشعل لفافة تبغ:

ــــــ"لـــو اجـــتمعت الخراف الغاضبة على طفل لمزقته تحت أقدامها .."

ــ"هل سمعت من قبل عن خراف غاضبة ؟ .."

ــــــ"هم فقدوا القدرة على الغضب، لكنهم كالخراف يهتاجون أحـــيانًا بـــلا ســـبب ولا مبرر واضح .. ونحن نعيش إحدى هذه اللحظات .."

ثم نفث دخان التبغ وقال في ملل:

ــــــ"اسمع .. لن أسمح لك ما لم أتلق أمرًا صريحًا من مستر (مراد)"

وكنت اعرف أن مستر (مراد) لن يوافق .. هو لا يرغب في المجازفة بوريثه الوحيد ...

* * *

هكذا جلست ذات ليلة مع باقي الشلة نتعاطى الفلوجستين..

رائحة الليمون الواهنة تملأ المكان ...

نجلس على الأرض .. يمرر احدهم الأنبوب الزجاجي الشفاف .. فيه قطارة صغيرة تملؤها ثم تسكب ثلاث أو أربع قطرات على جلد ساعدك .. ناولها لمن بجوارك ... ثم انتظر ...

انتظر حتى ترى الوهج الأخضر يتراقص ...

قطّر كل روائح الكون .. قطّر عبق السراخس في المستنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطّر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطّر البخور الذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطّر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطّر عبق كل غانيات باريس راقصات الكان كان .. قطّر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطّر الأحراش ذاتها .. قطّر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطّر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت ....

الآن أنت لم تعد هنا ... الآن أنت سيد المكان والزمان والكون ذاته ..الآن كل ما حلمت به موجود هنا معك ... يمكنك أن تشرب الأفكار في كئوس، وتصب الخمر في دهاليز عقلك .. يمكنك أن تلتهم الروائح وتراها .. يمكنك أن تشم الضوء .. كل ما خشيته رحل إلى غير رجعة .. أفكار عبقرية تخطر لك لكنك تنساها عندما تتمعن فيها .. عبارات مزاح ظريفة جدًا تتبخر قبل أن تخرج من فمك .. لكنك تقدر أنهم سمعوها .. لهذا تضحك ..

لهـــذا يضحكون ... بعد قليل يأتي الذهول وتشخص عيناك .. هذه هي اللحظة .. إنه (النفق) الذي لن تخرج منه إلا بعد ساعات ...

أشـــرت لــــــ جرمينال كي تقترب مني .. كانت شاحبة قليلاً بعـــد جراحة الكحت والتفريغ التي أجرتها الأسبوع الماضي للمرة الثالـــثة للخــــلاص من ابن جديد لي، وكانت في حالة انسجام تامة فلابد أنها تغوص وسط النيران الخضر الآن .. قلت لها:

ـــ"لقد قررت أن أخوض التجربة .. أريد أن أحضر تذكارًا"

شهقتْ في جزع وإن لم يبد أنها مذعورة حقًا فأضفت:

ـــ"نحن هنا ذقنا كل المتع .. نفس ما مر به نيرون وكاليجولا .. لم يعد من شيء يضفي الإثارة على الحياة مثل أساليب هذين.."

قالت هامسة:

ــــــ"لكـــن هـــذا خطر .. أنت تعرف هذا .. هناك يكرهوننا بجنون ولو رأونا بينهم فسوف ....."

ـــ"هذا هو ما أريده .. الخطر .. الموت "

بدأ وجهها يتقلص من النشوة لسماع هذه الكلمة .. الخطر .. الإثارة .. كلمات لم تعد في قاموسنا..

لـــيس صـــيد البـــشر غـــريبًا إلى هذا الحد .. أنا قرأت عن الموضـــوع كثيرًا .. هل تعلم أن صيد قبائل البوشمن كان نشاطًا رياضـــيًا مـــسموحًا بـــه في القرن الماضي ؟.. وفي عام ١٨٧٠ انقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد .....

بـــرغم أن الـــصيد غير قانوني في يوتوبيا فإن الكبار كانوا يتجاهلونه ما دمنا لا نكشف عنه علنا .. وهو شعار يوتوبيا العام:

افعل ما تريد طالما لم تعتد على مال باقي سكان يوتوبيا .. والأهم افعل ما تريد لكن أبقه سرًا حتى لا تضع على عاتقنا عبء أن نبدو حازمين، ولا تضع على ضمائرنا عبء أن نتظاهر بالشفقة

لكننا نحن الشباب صرنا نعتبر الصيد نوعًا من اختبارات الرجولة.. (راسم) فعلها .. تسلل ليلاً إلى منطقة من تلك المناطق المخيفة التي يعيشون فيها . أعتقد أن اسمها منذ عشرين عامًا كان (باب الشعرية) أو شيئًا من هذا القبيل .. اختطف واحدًا من هؤلاء الأغيار العاطلين وعاد به إلى (يوتوبيا)، وقضى ورفاقه أيامًا ممتعة من ملاحقة هذا المخطوف بالسيارات، ثم قتلوه واحتفظ (راسم) بيده المبتورة بعد ما قام بتحنيطها .. كل واحد من أصدقائي قام يومًا ما بهذه الرياضة: رياضة صيد الأغيار، وعاد منها بتذكار ثمين يريه لأمثالي ..

قلت لـ جرمينال:

ـ"الليلة ننطلق إلى الخارج لنأتي بواحد منهم .. ولسوف تأتين معي .."

كانت تحبني عندما أصدر الأوامر .. هذا يشعرها بالقهر ويدغدغ ماسوشيتها ..

عندما لا يصدر احدهم أمرًا لك طيلة حياتك .. عندما يدللك الجميع .. عندما تتحقق أتفه أحلامك، فإنك تعشق من يرغمك على شيء .. كنا نلعب تلك اللعبة كثيرًا .. نأمر الفتيات وعلى الفتاة أن تنفذ ما يُقال لها مهما كان .. أي شيء ..

لمعت عيناها حماسة ..

لكني كنت أفكر في خطة مناسبة .. ليس من السهل أن تتسلل لعـــالم الفقراء بالخارج.. العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول (يوتوبيا).. إن الفقراء وأبناء الأكابر يـــبدون متشابهين عندما تراهم في الظلام من طائرة .. طلقات في الظـــلام .. جثتـــين هامدتـــين وحـــادث مؤسف .. سوف يتم حل المـــشكلة في جلسة من جلسات الكبار وينال أبي عدة ملايين على سبيل التعويض . .. اعتقد أن هذا الحل يروق له لكنه لا يروق لي ....هذا كل شيء ......

ماذا أفعل ؟

٤

غارقًا وسط النيران الخضر التي صارت علامة مميزة لعقار (الفلوجستين).. تلك النار الخضراء الباردة التي تسبح فيها وتنتشي ثم تخرج رأسك طالبًا المزيد، قلت لـ جرمينال:

ـ"هل تعرفين أنهم هناك لا يستعملون أسماء لارين وجرمينال.. ؟.. يستعملون أسماء مثل (باتعة) و(زكية) و(عطيات).. "

وانفجرت ضحكًا .. لا أعرف السبب بالضبط لكن الأمر راق لي كثيرًا ..

قالت جرمينال وهي تدخن لفافة التبغ المحشوة الخامسة:

ـ"أعرف هذا .. نراه أحيانًا في التلفزيون في تلك التمثيليات العتيقة"

الحقيقة أن لنا تلفزيوننا الخاص الذي يعرض فقط ما تريده أنت .. نظام الكابل وسينما المنزل .. هناك إقبال عال على أفلام الجنس والعنف والجريمة .. من الغريب أن الأغيار يقبلون على ذات الأفلام في تلفزيوناتهم الرخيصة لكن لأسباب تختلف .. حب العنف هنا سببه الملل ..حب العنف هناك سببه الفقر والغل المكبوت .... لماذا كان أباطرة روما و عامة الشعب يحبون

مــشاهدة العبيد يمزقون بعضهم ؟ .. لماذا لم يكسب الفقر الفقراء رحمــة ؟.. لــيت أحد علماء الاجتماع يفسر لي هذا .. على قدر علمي يختلف مزاج الأباطرة تمامًا عن مزاج عامة الشعب، فلماذا يتفق المزاجان في شيء واحد هو القسوة ؟ ..

* * *

كانــت العاشــرة مساء وقد حان وقت التحرك .. لقد رسمت الخطة بعناية .. في الحادية عشرة تصل السيارة التي تنقل العمال لمــناطقهم العــشوائية .. نعــم هناك عمال في يوتوبيا لأن هناك أعمــالاً لا نــستطيع القــيام بهــا .. يأتون صباحًا بحافلة خاصة ويعــودون بهــا لــيلاً، وهم تحت المراقبة في كل الظروف .. لا يــتكلمون ولا يــرفعون عيونهم لكنك تشم منهم خليطًا مزعجًا من المقــت والخــبث والتملق والغضب المكبوت والرائحة الكريهة .. سنوات من القهر جعلتهم أقرب إلى الوحوش ... يومًا بيوم يفقدون جزءًا من آدميتهم حتى صاروا كائنات مريعة بحق ...

انتظــرت مــع جــرمينال في الظلام قرب مكان تجمعهم .. وقعــت عينــي على رجل يقاربني في الحجم ووقعت عيناها على امــرأة تقاربها في الحجم .. كانت الحيلة بسيطة بل هي أقدم حيلة في التاريخ ..

وقفــت علــى بعــد خطــوات من الرجل أقضم شطيرة من الهامبرجر في تلذذ ..

رأيــت عيني الرجل تتسعان وهو يرمق الشطيرة .. تحركت تفاحة آدم مع ابتلاع ريقه ..

قلت له في ترغيب:

ـــ"هل تريد قضمة ؟"

نظر لي في حذر كذئب يدعوه أحدهم لقطعة لحم، ولم يرد ..

نظرت حولي ثم قلت همسًا:

ـــــ"لا أستطيع أن أعطيكها هنا .. تعال خلف هذا الجدار ... لو رآنا أحد الحراس لكانت مشكلة لك"

ولــم أترك له فرصة للتفكير .. أسرعت خلف الجدار القريب ووقفت ..

بعد دقيقة ظهر لي كما توقعت ولعابه يسيل وعيناه متصلبتان على الشطيرة:

ـــ"هاتها ..!"

مـــا أقبح منظره !.. كل عالمه تلخص في هذه الشطيرة التي في يدي ولم يعد يعرف أي شيء عما يدور حوله ..

هنا دارت جرمينال بدورها حول الجدار، ثم هوت على رأسه بقطعة قرميد أخفتها في حقيبتها.. لم يكن هذا سهلاً لأنها لم تعتده، وقد اضطرت إلى أن تهوي على رأسه مرتين لأن الضربة الأولى لم تكن حاسمة جازمة .. وعلى الفور تعاونا في الظلام على نزع ثـــيابه وارتديـــتها أنا ..مزية هذه الثياب أن هناك بطاقة هوية في جيب كل منها .. هناك (كاسكيت) على الرأس ... لا بأس .. هذا يخفي معظم معالم الوجه ..

تـــناولت جرمينال الشطيرة مني وهي ترتجف ثم وقفت قرب المرأة المختارة ..

تكـــرر الـــسيناريو بـــذات الخطوات تقريبا ... الاستدراج .. الجدار ... لقد هويت على رأس المرأة بقطعة القرميد، ثم جردتها مـــن ثـــيابها لتلبسها جرمينال .. أخفينا ثيابنا الأصلية تحت حجر .... المرأة تلف رأسها بإيشارب وهذا من جديد يسهل الأمور .... يا لها من مغامرة !

الآن فقط اشعر بالأدرينالين يتدفق في عروقي .... النشوة !

نظـــرت للسماء ورحت أعب الهواء في جرعات كبيرة ليهدأ قلبي قليلاً فلا يثب من صدري .. توقف !.. بالله عليك توقف !

الآن نـــصعد إلى الحافلة وقد تحولنا إلى رجل وامرأة منهم .. فقيـــرين كئيبـــين .. الثياب كريهة الرائحة خشنة، لكن من قال إن المغامرات مريحة ؟ ..

الحافلة تتحرك ببطء نحو البوابات الخارجية .. نقاط تفتيش.. جـــندي أمريكـــي يسلط الكشافات على وجوهنا .. لحظة الضعف عـــندما يرون ولا ترى .. لكنك تضع ثقتك في قذارة الثياب وفي غطاء الرأس ...

لا أحد يعرفنا في الحافلة لأن هؤلاء القوم لم يعودوا يعرفون مـــن يأتون ومن يرحلون .. عندما نرغب في العودة سيكون هذا أســـهل لأننـــي سأتـــصل بأبي طالبًا أن يرسل لنا من يعيدنا إلى (يوتوبيا)..

حدث هذا مع (شادي) عندما وجد نفسه محاصرًا في (العتبة) عاجـــزًا عـــن العـــودة .. اتصل بأبيه ملك الاتصالات الذي أطلق بعـــض السباب، ثم أرسل له طائرة هليوكوبتر خاصة بالماريتز،

وكـــان المشهد دراميًا مروعًا عندما راحت الطائرة تحلق عموديًا فـــوق (العتـــبة) مطلقة رصاصها فوق الرءوس بينما تدلى رجال الإنقاذ بالحبال ليحملوا (شادي) وصيده ...

وارتفعـــت الطائـــرة فـــوق الرءوس كأنها إله وثني من آلهة الإزتك .. واو !.. أية إثارة !

همست جرمينال في أذني:

ـــ"رائحة الثياب كريهة .. هذه المرأة لم تكن تستحم .."

أمـــرتها بالصمت .. لم يعد يحمينا الآن إلا حسن تصرفنا بعد أن خـــرجنا مـــن البوابة، وبعد أن تفحص رجال المارينز هوياتنا دون ان ينظـــروا لوجوهنا .. إنهم لا يدققون فعلاً فيمن يخرج .. المهم من يدخل .. لكن ما يقومون به هو نوع من تأكيد الحضور لا أكثر .. فلتعرفوا من هو القائد أيها الرعاع ..

* * *

تنسحق الشمس إذ تطؤها أقدام الكوكب الأحمر ..
تصرخ الملائكة خوفًا ..
أنت فريستي .. أنت لي ..
فقط عندما تصير جزءًا من خلاياي بعد الافتراس ..
عندها تعرف معنى الأبدية..

من أغاني الأورجازم

* * *

الليل والصمت وإثارة المغامرة .. والصحراء ... أعتقد انني غفوت لبعض الوقت ..

الرائحة الكريهة تدنو من جرمينال .. الرائحة الكريهة والبخر من فم تلفت أسنانه .. امرأة .. تشريحيًا هي كذلك ... أو كما يصف راسم مثيلاتها : هذا رجل منقوب لا أكثر !

تقرب رأسها من جرمينال كأنها تنين يطل من المقعد الخلفي.. تهمس:

ـ"معك سيجارة يا شابة ؟"

مذعورة تهز جرمينال رأسها أن لا .. يا لسذاجة انعكاساتك!... لو أن كلبًا مسعورًا يتشممك لما تصرفت بهذا الشكل ...

ـ"معك أي شيء يؤكل ؟"

لسبب ما تعتقد هذه المرأة أنها تجلس خلف بوفيه مفتوح ...

تمد جرمينال يدها في الكيس الذي تحمله ولا شعوريًا تناولها بقايا شطيرة الهامبرجر ...

المرأة تقضم من الشطيرة في جشع .. تلوكها في تلذذ شبه جنسي .. تقول إنها لو وجدت سيجارة لصارت الحياة أروع ...

ـ"هل تعملين عند الحمزاوي بك ؟"

لا تعرف جرمينال ما تقوله لها ... تهز رأسها أن نعم .. تقول المرأة إنه وغد ولص وابن كلب .. الرجل صديق أبي لكنني أوافق على كل حرف .. لقد اقتصدتُ الكثيرِ من الأوصاف ...

ألتفت لها وأقول في خشونة محاولاً التخلص من ثقل لغتي العربية:

ـ"كيف خمنت أنها تعمل عنده ؟"

ـ"لأنها شابة مليحة ولأنها تحمل هذه الشطيرة.. "

تمـد يدها على شكل قمع وتقبض بأطراف أناملها على ذقن جرمينال .. ثمة لمسة غير مريحة في هذه الحركة تتجاوز السلوك الطبيعـي ... لهذا تجفل جرمينال كأنها لامست ثعبانًا .. لابد أن الأظفار الطويلة تخدش جلدها الناعم ....

تردف المرأة:

ـ"يحب الشابات المليحات .. لديه جيش من الجواري .. ابن الـزانية يـضاجع ثـلاث فتيات في فراش واحد أحيانًا .. مع انه تجـاوز الـستين لكـنه ما يأكلونه .. إن الاستاكوزا وذلك الدواء الجديد يأتيانه يوميًا طازجين من فرنسا .."

كـنت أعـرف اسـم الـدواء الجديـد لأن أبي يستورده .. (ليبيدافرو).. مستحيل أن تنطقه المرأة .. منذ أعوام كانت الفياجرا ثـم جـاء هذا العقار القادر على إتيان المعجزات .. لهذا لا يتوب رجـال يوتوبيا أبدًا .. لا يشيخون ولا يهرمون، وشهوتهم للنساء أبديـة كآلهـة الإغـريق، لكن الكبار لا يجدون فرصتهم إلا مع الأغيار على عكس الشباب .. أنت تظفر بالمرأة عن طريق فتوتك أو مالـك أو نفـوذك أو سـطوتك... يملك الكبار السطوة والنفوذ والمال ولا يملكون الفتوة الطبيعية التي لا تصنعها العقاقير..

تقول المرأة:

ـــ"ابـن الزانية ينام مع ثلاث فتيات كل يوم، لكنه لم يلمس امـرأته منذ عشرة أعوام .. تسألينني كيف أعرف هذا كله .. لا تـوجد أسـرار هنا يا حبيبتي .. ما يدور بين الجدران هو تسليتنا

الوحـــيدة كما تعلمين .. لا تخجلي .. أعرف أنه فعلها معك .. لو أقـــسمت لـــي على المصحف أنه لم يفعل لما صدقت .. لن يصبر الحمزاوي بك أكثر من أسبوع على هذه البشرة الناعمة .."

ثم فرغت من الشطيرة فتجشأت بقوة ومسحت فمها وقالت:

ـــــ"إنـــه منحط الذوق أيضًا .. (بيرمرم)... كنت أعمل عنده وأرادني .. أنا قبيحة كالقرد وليس في ما يجذب أي رجل .. لكنه كـــان ثمـــلاً وقـــد طلبني، كأن البلغم احتشد في حلقه واحتاج إلى مبصقة .. لا تستطيع المرأة منا أن تمتنع عن الحمزاوي بك .. لا أعـــرف السبب .. ربما هو الخوف .. ربما هي سطوته .. فكرة لذيـــذة أن هـــذا العمـــلاق الثري يريدك أنت .. المهم أنك تقبلين دائمًا.. لا تقولي يا شابة إن من يفعلن هذا مرغمات طيلة الوقت.. لا وحـــياتك .. للـــشرف حدود يتهاوى بعدها .. المهم أن الخنزير انفـــرد بي لحظات، ثم أدار ظهره لي وقد زالت شهوته فأدرك كم أنـــا منفرة.. هكذا تقيأ وركلني بقدمه ركلات متتالية حتى ألقي بي من فوق السلم مثل تلك الأفلام القديمة .. أفلام يوسف بك وهبي.. راح يسبني سبابًا مقذعًا ... أنا أعرف أصل وفصل هذا الرجل .. هـــؤلاء لم يأتوا من السماء .. كلهم جاء من أسفل أسفل الطبقات، لكننا وأهلنا كنا أغبياء كالبهائم بينما هم عرفوا كيف يعصرون من الزلط دهنًا .... "

ثم في ظلام العربة نظرت نحوي وقالت :

ـــ"وأنت يا الجدع ..؟.. هل تعمل عند الحمزاوي بك كذلك ؟"

قلت لها في حذر وبذات الصوت الخشن:

ـــ"مراد بك .."

حان وقت معرفة شيء جديد عن مراد .. أبي ..

أطلقت صهلولة مزقت صمت وظلام العربة وقالت:

ـــــ"إذن أنـــت مـــنهم يا سيد الرجالة !!... هيء هيء !.... عرفت هذا على الفور عندما سمعت صوتك الناعم .. ما جمع إلا ووفق !... هي تعمل عند الحمزاوي بك وأنت عند مراد بك . لو حـــدث العكس لكانت مصيبة .. كان مراد بك سيضربها بالجزمة وكـــان الحمزاوي بك سيمزقك بالسياط .. هيء هيء !.... هكذا أنتما آخر انسجام .. الأكابر راضون عنكما !"

كانـــت معلومات عجيبة . وقد بدأت أتذكر سلوك مراد وأجد علامات استفهام لم ألحظها هنا وهناك ..

هـــل المـــرأة تطلق إشاعات لا نصيب لها من الصحة، أم إن الأمر كذلك فعلاً ؟..

ومـــاذا يهـــم ؟.. مـــراد هو الرجل الذي يصدر لي الأوامر لأرفـــضها ويعطينـــي المال .. ما أهمية سلوكه الأخلاقي ؟... أنا لست مسئولاً عن أخلاق أبي .. لن أناسبه على كل حال ....

هنا انخفض صوت المرأة وقالت في الظلام:

ـــ"برغم هذا أنجبت منه .. لا يأتي العالم سوى الطفل الذي لا تـــريدينه وتدعـــين الله أن تزهق أنفاسه .. ابن حرام فعلاً.. كنت وحدي ساعة الولادة .. قطعت الحبل السري بسكين صدئة وجدتها جـــوار الفـــراش ثم رفعت الرضيع من قدميه وتأملته .. كتلة لحم ملـــوثة بالـــدم المتخثر.. ابن الحرام يطالب بحقه في الحياة . ابن

الحــرام يطالب بالغذاء والهواء والدفء والحنان ... لم يكن هناك ما أفعله له .."

هنا فقط علا صوت جرمينال تسأل في قلق:

ــ"ماذا فعلت ؟"

تــضحك المــرأة .. تضحك .. صدرها يترجرج بما فيه .. صدرها يتحشرج .. تسعل .. تبصق ...

ثم تلقي برأسها إلى الخلف ويتصاعد شخيرها....

ظــلال الطــريق تركض على ملامحها القبيحة التي زادتها المرارة وعورة .. طريق حجري آخر محفور على قسماتها ...

تتصاعد النشوة في دمي .. دمي يغلي ...

كلماتهــا ألهــبت خيالي .. كل هذا الألم .. كل هذا الشقاء .. الموت .. القتل ....

مددت يدي واعتصرت يد جرمينال وعضضت لساني من ألم النشوة ... هذا كل ما أستطيع عمله الآن .....

– ٥ –

الآن نحن ندخل أرض الأغيار ......

العــالم الآخر الذي تركناه منذ زمن، يوم توارينا خلف أسوار (يوتوبيا)..

شبرا ..

هكذا يطلقون عليها ...

شبرا التي لم أرها إلا في أفلام السينما .. للاسم رنين غريب قــاس فــي مــسمعي .. لابــد أن له رنين سييرا مادري أو ريو جــراندي فــي مسامع الأمريكيين .. تتوقف الحافلة وسط الزحام ويتــرجل بعض الراكبين، فأشير لــ جرمينال كي تترجل معي .. هنا بداية لا بأس بها ..

أيــن ذهــبت تلك المرأة ؟.. لا أعرف .. هكذا تذوب الوجوه التي لا اسم لها في الظلام والزحام ...

خلــيط عجــيب من الروائح والأصوات والمشاهد .. الرائحة الأولــى والرئيــسة هــي رائحة العرق .. في هذه الرائحة ذابت روائــح غريبة من المأكولات والوحل والفضلات البشرية وربما الدماء ..

هناك عربات تكدست فوقها أطعمة .. خلائط من الأطعمة .. هناك كومة أرز وكومة من مادة عجينية بيضاء أعتقد أنهم يطلقون عليها اسم (كسكسي) وبرتقال ويوسفي ومشروبات ساخنة لا تعرف ما هي .. منذ زمن صار هناك باعة جائلون للخمور، ولكن أية خمر هذه ؟.. زجاجة بحجم الكف ثمنها خمسون جنيه مع كل هذا التضخم !.. لو كان هذا بولاً لكان سعره أكثر من ذلك.. زجاجات عطر قديمة امتلأت بما لا يمكن معرفة كنهه .. أعتقد إن الكحول الأحمر عامل مشترك بين كل هذه السوائل .. قال مراد إن هذا – بيع الخمر في الشارع – كان عملاً لا يمكن تصوره منذ عشرين عامًا، لكن الأخلاق تتآكل في الفقر كما يتآكل المعدن الذي يقطر فوقه الماء .... والأغرب أن الكحول الميثيلي لا يصيب هؤلاء القوم بالعمى كما يفعل في العالم كله.. لو كانت معدتهم من حجر فكبدهم من فولاذ وعصبهم البصري كابل كهرباء ..

الشطائر مشكلة أخرى ... كومة من الشطائر .. شطيرة مليئة بما يزعمون أنه كبدة وثمنها عشرون جنيهًا !... لو كانت هذه أكباد فئران لما أمكن بيعها بهذا السعر ...

الخلاصة التي توصلت لها بعد دقيقة في هذا العالم هو أن هؤلاء القوم يتظاهرون بأنهم أحياء .. يتظاهرون بأنهم يأكلون لحمًا ويتظاهرون بأنهم يشربون خمرًا، وبالطبع يتظاهرون بأنهم ثملوا وأنهم نسوا مشاكلهم ... يتظاهرون بأن لهم الحق في الخطيئة والزلل ..

يتظاهرون بأنهم بشر ...

* * *

الآن فقط افهم لماذا عزلنا أنفسنا في (يوتوبيا).. لم يعد في هذا العالم إلا الفقر وإلا الوجوه الشاحبة التي تطل منها عيون جاحظة جوعى متوحشة .. منذ ثلاثين عامًا كان هؤلاء ينالون بعض الحقوق أما اليوم فهم منسيون تمامًا .. حتى الكهرباء والماء مشكلة فردية لكل منهم .. من استطاع أن يحصل على مولد أو يحفر بئرًا فبها ونعمت، وإلا فعليه أن يتحمل ..

الغريب أنهم تكاثروا بسرعة لا تصدق .. معدل الخصوبة عندنا في يوتوبيا يوشك أن يصير صفرًا، بينما معدلاتهم في ارتفاع متزايد .. ينجب الرجل عشرة أطفال يموت منهم خمسة لأنه لا توجد عناية طبية من أي نوع، لكن الزيادة مستمرة برغم كل شيء .. يبدو أنهم يعتمدون على الأعشاب والوصفات الشعبية اعتمادًا مطلقًا .. أبي يحتكر كل الدواء في السوق وأسعاره خيالية، لكن هناك دائمًا من يشتري .. لغز هذا البلد هو أن هناك من يشتري في كل وقت وبأي سعر، وهو ما يثبت لك أن (ماركس) أحمق على الأرجح عندما تصور أن التوازن سيأتي في لحظة لا يعود فيها الفقراء قادرين على الشراء ..

بعض هؤلاء القوم متدين، لأن الدين هو الأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت .. لا يمكن أن يتعذب المرء طيلة حياته ثم يموت فيتحول إلى كربون بلا ثواب ولا عقاب .. عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف، لكن

الـسبب – كما أعتقد – هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شـيء فـي لحظة . ان يصحوا ليجدوا أنفسهم وسط هذا الزحام يبـتاعون شطائر من كبد الفئران ويشربون الكحول الأحمر .. إن الأمر يحتاج إلى عدد كبير من العمرات والأدعية كي تتجنب هذا المـصير الأسـود.. الخلاصة انه من العسير اليوم أن تجد متديناً بغرض التدين في حد ذاته ...

* * *

"واصـل المعتمـرون المصريون عمليات الهروب الجماعي المـنظم داخـل الأراضي السعودية، وفوجئ العاملون بأحد فنادق مدينة مكة المكرمة ومندوبو الشركة المنظمة للرحلة يوم الخميس الماضـي بهروب جميع المعتمرين المقيمين بالفندق، البالغ عددهم ٧٢ معتمـرا ليلاً دون أن يشعر بهم أحد أو يشاهدهم أثناء خروج مـتعلقاتهم الخاصـة. قـال أسامة العشري وكيل وزارة السياحة: الغـريب في الواقعة الثانية أن المعتمرين تركوا جوازاتهم وتذاكر الـسفر عكـس الواقعة الأولي التي قام فيها المعتمرون بالاعتداء علـي سائق الأتوبيس ومندوب الشركة المنظمة للرحلة، للحصول علي جوازات السفر.."

موقع مصراوي بتاريخ ٢٦-٨-٢٠٠٧

* * *

كنا نمشي وسط الجموع ذاهلين .. علينا ألا نلفت الأنظار لنا، لكني شعرت بضخامة هذه المغامرة التي ألقينا بنفسينا فيها ..

تشد جرمينال يدي في عصبية فأنظر إلى حيث تشير.. هناك قفص خشبي عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر .. المصيبة أن الناس يبتاعون هذه الأشياء .. أقاوم العصارة التي ارتفعت إلى حلقي وأجرها بعيدًا .. سوف تفضحنا بطريقتها الانفعالية الهستيرية هذه .. لو دقق أحدهم في وجهنا لرأى أننا لم نعرف الجوع يومًا ..

البائع ينادينا:

ـــ "تعال يا أخ .. منذ متى لم تطه الخضار على (زفر) ؟.. هذه الجلود تؤدي الغرض تمامًا .."

يرفع سلخة من الجلد ويلوح بها على سبيل الترغيب ....

يبدو أن أرجل الدجاج رائجة كذلك .. الرءوس .. الأجنحة .. لكن أين الدجاج نفسه ؟.. حتى دجاجهم تحول فيما يبدو إلى عظام يكسوها الجلد فقط .. لا عضلات ولا أحشاء ..

طفل ضال أجرب يلتقط شيئًا من على منصة بيع ويفر به فتلاحقه اللعنات وتتطاير الشباشب خلفه ..

أكوام من الثياب المتسخة المستعملة تباع بمائة جنيه للقطعة .. هناك من يقول إن الجنيه كان أعلى سعرًا من الدولار يومًا ما .. لا أصدق هذا وقد صار الدولار يساوي ثلاثين جنيهًا .. هذا نموذج مخيف للتضخم لأن ثمن هذا القميص لن يتجاوز ربع دولار بحال . لسبب كهذا تجد أن أسعار الأشياء تحدد بمئات الجنيهات. وأعتقد أنهم يفضلون المقايضة على كل حال باعتبارها أقرب للحقيقة.

الآن نخــرج من منطقة السوق هذه كي نتوغل بين مجموعة مــن العشش الصفيح أو المصنوعة من البامبو وبقايا الأخشاب .. الأرض مبــتلة تغــوص فــيها قدماك .. مزيج من الوحل وبقايا الغسيل والمجاري الطافحة .. أمشي في حذر لأن التعثر هنا نوع من الانتحار ..

علــى أبــواب العــشش تقــف نساء قذرات بشعات المنظر يــضحكن لــي في إغراء .. أعتقد أن أصغرهن تجاوزت الخمسة والثلاثــين مــنذ زمن، لكنها لا تمارس مهنتها بسبب تأخرها في الزواج بل من أجل المال ..

على قدر علمي لم يصدر أي قانون بإباحة البغاء، لكنه صار ظاهرة حقيقية .. صار أقوى من القانون .. أقوى من العرف ...

أعــرف أن سن الزواج كان قد صار أربعين عامًا للفتاة ولم يعــد هناك سن زواج للرجل، ثم حدث أحد الانقلابات الاقتصادية إياها فصارت شروط الزواج أسهل .. يكفي أن تجد من تقبل بك، وعندها لا داعي للسكن ولا الراتب .. سوف يعنى كل واحد بنفسه والأطفــال ســوف يجدون رزقهم بشكل ما .. هكذا انخفض سن الزواج من جديد ..

كان هذا كله أقبح من اللازم ..

أبشع من اللازم ..

أكثر واقعية مما يجب ...

عـــندما يـــزحف القبح والعطن على كل الإثارة التي يولدها الخـــيال .. تلتف الغصون الشائكة الطفيلية حول الثمار، وتزحف العقارب بين اللآلئ ...

*　　*　　*

كـــان اسمها كاتي .. أمريكية هي .. أول فتاة عرفتها .. في سن الثالثة عشرة كانت هي الحلم الرومانسي الأبدي.. كانت أكبر مـــن الحـــياة ومن الواقع، ثم ظفرت بها في تلك الليلة فوق رمال الشاطئ المبتلة.. عندها ماذا عرفت وماذا رأيت وماذا شممت ؟.. هـــويت من قمم الأوليمب لأزحف في الوحل، وعرفت أن الواقع أقبح مما تتصور ...

يجـــب أن ننتهي من مهمتنا ونرحل .. فلنختطف من نختطفه ونفر ...

*　　*　　*

فتاة تنظر لي وتغمز بعينها غير مبالية بجرمينال التي تمشي جواري ..

هنا خطرت لي فكرة ..

هنا صيد سهل هش بينما الذكور يمكن ان يكونوا خطرين .. هم بالتأكيد خطرون ..

يـــبدو ان جرمينال فهمتها هي الأخرى فابتعدت عني .. هكذا مـــشيت وحيدًا إلى حيث الفتيات الواقفات يبحثن عن طالب شهوة، فانتقـــيت بعينـــي واحدة منهن .. لم اخترها إلا على أساس قوتها

الجسدية .. سيكون عليها ان تتحمل مطاردة عنيفة بالسيارات وسط الصحراء ..ربما تصير هدفًا للرماية ..

فتاة بشعة المنظر لا يميزها عن الذكر إلا فارق تشريحي واه.. عريضة المنكبين ضخمة العظام .. لو ألصقتْ شاربًا لصارت تشبه (مراد).. بالتأكيد هي تصلح..

ونظرت إلى ساعدها في شغف .. نعم .. حجمه مناسب وفيه خشونة تدل على مصدره .. لن يكذبني أحد في جلسات المزاج عندما أفتح الكيس البلاستيكي لأعرض عليهم هذا الساعد .. لقد سخروا من رامي واتهموه بأنه ابتاع اليد من حارس مقابر، والسبب أنها كانت ملساء منمقة ..

دنوت منها فاعتدلتْ في وقفتها وضحكت كاشفة عن أسنان صفر لم تغسل منذ أعوام .. فقلت لها بلهجة الخبير:

ـ"كم ؟"

بصوت مبحوح ممزق للأعصاب يذكرك باحتكاك (الفوم) الذي يغلف الأجهزة الكهربية:

ـ"أنا آخذ خمسين .. الليلة كلها بمائتي جنيه .."

ـ"أين ؟"

ضحكت في رقاعة ثم أشارت إلى المباني المهدمة من حولنا وقالت:

ـ" في القصر بتاعي يا عين أمك .. أي مكان .. "

مددت يدي في جيبي، لكنها قالت بلا مبالاة:

ـ"ليس أنا .. بل هو .."

وأشـــارت إلـــى الخـــرائب .. طبعًا لابد لها من قواد يحميها ويستولي على مالها ..

ـــ"إنه عمي .."

نظـــرت للوراء فوجدت جرمينال تراقب الموقف من بعيد .. هكـــذا جـــذبت الفتاة من معصمها ومضينا نتوغل وسط الخرائب المظلمـــة.. مـــن حين لآخر تقابل بعض الفتية جالسين القرفصاء يدخـــنون الـــبانجو كـــريه الرائحة .. أو يمسكون بعلبة لا أعرف محتواها يشمون ما بها .. ومن حين لآخر ينادينا أحدهم:

ـــ"اتفضل !!"

يـــبدو أنهم يعرفون الفتاة فلم يتعرضوا لنا ..إنها امرأة عاملة تمارس مهام وظيفتها فليس من حسن الأدب أن يضايقها أحد ...

ـــ"ها هو ذا أمامك .."

ونظـــرت فـــإذا برجل ضخم الجثة أشيب الشعر يقف جوار عامـــود نـــور مائل .. في حزامه مدية عملاقة وفي قبضته سيف اصـــطنعه مـــن (سوســـتة) سيارة .. أعتقد أنهم يطلقون عليه اسم (ســـنجة).. له عين تالفة تغطيها سحابة بيضاء وهناك جرح يقطع وجهـــه بالطـــول .. يبدو أقرب إلى البلطجي منه إلى القواد، لكن عندما نتكلم عن حثالة البشر فلا فارق بين(موديل) وآخر ....

دنوت منه وأنا امسك بمعصم الفتاة وقلت في خشونة:

ـــ"مرة واحدة .."

وأخرجت من جيبي خمسين جنيهًا ..

عـدها عدة مرات كأنما هو يجرد محتويات خزانة الولايات المـتحدة، ثم بصق جانبًا ودس المال في حزامه .. ومن جديد لم يبد أنه يرانا أصلاً...

سألتني الفتاة وهي تفك تنورتها:

ـ"هنا ؟"

ـ"أفضل الابتعاد فأنا خجول .."

أطلقتْ صهلولة عالية رقيعة ومضت معي ...

فقـط بطرف عيني كنت انظر للخلف فأرى جرمينال تحاول اللحـاق بنا خائفة متعثرة .. وسط هذه الخرائب والفئران لابد أنها تعيش أسوأ لحظات حياتها ....

وأخيرًا صرنا وحدنا تقريبًا . فتحت الفتاة فمها لتتكلم:

ـ"هلم انته الآ ...."

لكنـي فـي اللحظة التالية انهلت على جذور عنقها بضربة سيف يد تعلمتها عندما زرت (كمبوديا)، فسقطت على الأرض بلا حراك .. فقط عيناها شاخصتان ...

وفـي اللحظـة التالية سمعت جرمينال تناديني .. بمعجزة ما اخترقت الخرائب بكل المتعاطين المتجمعين فيها ..

قلت لها لاهثًا:

ـــ "انتهى الأمر .. سأطلب أمي كي ترسل من يخرجنا من هنا .."

ومـددت يـدي فـي جيبـي لأخرج المدية التي سأنجز بها مهمتي...

فـــي هذه اللحظة سمعنا حركة .. رفعت عيني فرأيت عشرة من هؤلاء الشباب يحيطون بنا .. وسمعت من يقول:

ـــ"إنهما ليسا منا !... هذان من يوتوبيا !!"

الجزء الثاني

الفريسة

- ١ -

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعــرف أنني سأموت بعد يومين فلا تقل العكس .. لا تكرر هذا الهراء وإلا طعنتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة .. أنا لم أفعل هذا منذ زمن .. قرنيتي الحبيبة .. وما بعد الجنس ...

منذ متى ضاع كل شيء ؟

لا أعرف ..

يــشبه الأمر مراقبتك للشمس ساعة الغروب .. لا تعرف أبدًا متى انتهى النهار وبدأ الليل .. متى بهت الضوء وبردت الأشياء، ومتـــى تسرب دم الشفق الأحمر يلوث الأفق، ولا متى ساد اللون الأرجواني كل شيء .. لا يمكنك أن تمسك لحظة بعينها .... ليس بوسعك أن تقول: هنا كان النهار وهنا جاء الليل ...

فقــط أذكر أن الأمور كانت تسوء بلا انقطاع.. وفي كل مرة كان الفارق بين الوضع أمس واليوم طفيفًا، لذا يغمض المرء عينه كــل لــيلة وهو يغمغم: أهي عيشة ..ما زالت الحياة ممكنة .. ما زال بوسعك أن تجد الطعام والمأوى وبعض العلاج .. إذن فليكن غد ..

ثم تصحو ذات يوم لتدرك أن الحياة مستحيلة، وأنك عاجز عن الظفر بقوت غد أو مأواه ..

متى حدث هذا ؟.. تسأل نفسك فلا تظفر بإجابة ....

* * *

الموعد كان منتصف الليل ..

أشق طريقي بين العشش العتيقة التي كانت فيما مضى تشكل شارع (شبرا). نعم .. أذكر أنه كان هنا شارع واسع تمشي فيه السيارات على الجانبين .. تراهنت مع (زينهم) على أنه كانت هنا سينما يومًا ما. ابن الكلب لا يعرف معنى سينما أصلاً لكنه يجادل بالباطل.

بصراحة أنا أيضًا لا أذكر إن كانت هنا سينما أم لا .. لكني على الأقل أذكر ما هي السينما .. كانت هناك صور عملاقة جدا تتحرك، وكان هناك ظلام يمكنك فيه أن تدخن الحشيش بسهولة .. يبدو أنه كانت لي تجربة أو اثنتان فيها لكني لا أذكر مع من ..

الموعد كان منتصف الليل ..

باب المترو المغلق .. أنا أعرف كيف أفتحه .. فقط أدس رأس المسمار في القفل الحكومي الصدئ وأدق بحجر فينفتح القفل فالجنزير . هذا المدخل يعرفه كل أولاد الليل مثلي. لكننا نحرص على أن نغلقه عند الخروج. لا نريد أن يتمكن أحد من دخول عالمنا السري تحت الأرض..

أزيح الستار الحديد وأنسل إلى الداخل .. الممرات المظلمة الخالية عطنة الرائحة ..

أشعل مشعلاً وأرفع يدي لتتسع دائرة النور ..

هناك تقف عربات المترو الخربة كوحوش هامدة.. لقد انتهى أمـــرها منذ كف السادة عن استعمالها ورحلوا إلى مستعمراتهم .. يوتوبيا وسواها ... لم تعد هناك صيانة .. لم تعد هناك كهرباء .. في النهاية وقفت هذه الوحوش الصدئة النائمة للأبد، ومن الواضح أنهـا لــن تتحرك ثانية .. بعض الشباب لا يعرفون أنها موجودة أصلاً..

في زمن ما كانت هذه العربات فائقة الشهرة، وكان هذا أعظم إنجــاز للحكـــومة منذ دهور. لا أعرف متى تداعى وانهار. لكنه تزامن مع ميلاد يوتوبيا على الأرجح. أعتقد أن الناس نعموا بهذا المشروع خمسين عامًا أو أقل .. بعده صار مأوى للكلاب الضالة

ثم لم تعد هناك كلاب ضالة .

لم يعد سوانا ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ... أواه !!....

هــناك كانوا يقفون .. (عبد الظاهر) و(متولي) و(محروس) و(مينا) ...

عرفوني من مشيتي العرجاء ومن قامتي فهتف (مينا):

ـ"سلام يا (جابر).. والمسيح الحي انتظرناك كثيرًا "

لا يمكــنك أن تعرف دين أي واحد هنا ما لم ينطق بقسم من نــوع (المــسيح الحـــي) أو يصل على رسول الله، فحتى الأسماء صـــارت عادية محايدة لا تدل على شيء .. (فريد) .. (عوض).. (عمـــاد).. الخ. لو كانت هناك مزية وحيدة لمجتمعنا هذا فهي أنه

لا يعـــرف شـــيئًا اســـمه التفرقة الدينية. لقد تحققت جنة المساواة الطائفية ولكن بشكل عجيب لم يدر بذهن أكثر الفلاسفة جموحًا .. منذ ساوى الفقر بين الجميع، لم يعد أحد يعرف إن كنت مسلمًا أو مسيحيًا إلا عندما تعلن أنك ذاهب لعمرة، أو ينكشف ساعدك

ليظهـــر وشم الصليب .. لولا انتهاء عصر البترول لاشتعل الوضـــع الـــذي كـــان مرشـــحًا للانفجار في أوائل القرن الواحد والعشرين ...

هتف (عبد الظاهر) في وجهي:

ــ"هل معك (فلوك) ؟"

أطلقـــت صوتًا نابيًا من خياشيمي .. (فلوجستين) معي أنا ؟.. هـــؤلاء الـــبلهاء لا يـــستطيعون نطق اللفظة كاملة لذا قرروا أنه (فلوك)...

ــ"من أين يا بن الـــ ...؟"

ثـــم دسست يدي في جيبي وأخرجت سيجارة ملغومة وقذفتها له:

ــ"هذه معي .."

أطلق صوتًا نابيًا آخر وهتف:

ــ"جميل .. عدنا لأيام الروضة .. "

لكنه أشعلها برغم كل شيء وأطلق سحابة كثيفة من الدخان.. لـــم يعد شيء بقادر على التأثير في هذا الجهاز العصبي، فلا شك أنـــه بحاجـــة إلـــى طـــن من الحشيش كي يشعر بانبساط وقتي. الفلوجستين .. الفلوجستين هو سيد المخدرات لكن من أين لنا به؟.

هناك في يوتوبيا تسيل انهار الفلوجستين .. إنهم يأكلونه ويشربونه.. إنهم يعرقونه .. إنه طمث النساء وبول الرجال .. صنابير انماء لا ينزل منها ماء بل فلوجستين .. يغسلون أقدامهم في الفلوجستين .. يسقون كلابهم فلوجستين.. لو حدثت ثورة يومًا ما فلن تكون من أجل المساواة، بل من أجل مطالبة المحرومين بحقهم الطبيعي في الفلوجستين..

(عبد الظاهر) بلطجي لكنه جدع .. أعترف أنني أحبه وأثق فيه. خاصة عندما لا يساوره ذلك الهاجس المرضي ويروح يحكي لنا خطته بصدد البايرول ويوتوبيا .. أنا أعتبر هذه الخواطر نوعًا من الاستمناء الفكري. هو لم يفعل شيئًا .. لن يفعل شيئًا على الإطلاق.. لذا يقضي الوقت في وصف المتع الجهنمية التي تنتظره لو نفذ خطة البايرول تلك ..

قال (متولي) وهو يسلك أذنه بإصبعه:

ـ"سليمان ينتظرنا هناك .. عند فتحة (سانت تريز)..".

كانت اللافتات الصدئة المتسخة لا تقول أي شيء على الإطلاق .. لكننا صرنا قادرين على تحديد اتجاهاتنا في ضوء اللهب المتراقص.

هكذا وثبنا إلى عربات المترو التي لم يعد فيها مقعد واحد ولا لوح زجاج واحد، ومنها وثبنا إلى القضيب ثم إلى الجهة الأخرى، ورحنا نركض في الظلام قاصدين تلك الفتحة ..

هنا رأيناهم ..

كانوا خمسة يقفون هناك وقد أدركنا على الفور أنهم (بيومي) وشلته.

وسطهم على ضوء المشاعل رأينا واحدًا ممزق الثياب مذعورًا والدم يسيل من أنفه ..

لقد قبضوا على سليمان ..

* * *

يمكن أن يتحمل المرء الحياة بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب (ربما بضعة أيام)..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

بلا ثلاجة ..

بلا جهاز هاتف ..

بلا جهاز تلفزيون ..

بلا ربطة عنق ..

بلا أصدقاء ..

بلا حذاء ..

بلا سراويل ..

بلا فلوجستين ..

بلا واق ذكري ...
بلا أقراص للصداع...
بلا مؤشر ليزر ..
لكنه لا يتحمل الحياة بلا أحلام ..
منذ طفولتي لم أجرب العيش بلا أحلام ..
أن تنتظـــر شيئًا .. أن تُحرم من شيء .. أن تغلق عينيك ليلاً وأنت تأمل في شيء .. أن تتلقى وعدًا بشيء ..

فقـــط في سن العشرين أدركت الحقيقة القاسية، وهي أن علي أن أحيا بلا أحلام ..

لـــن يكون هناك شيء يا صاحبي .. لا اليوم ولا غدًا ولا بعد يوم ..

حــــياتك حاضـــــر طويييييييــــيــــــــ (مــــاذا تنتظـــــر ؟) ــيييييــــــــــــ (لا شيء) ـــــــــــــــــــييل قاس ..

فقـــط فـــي هـــذه اللحظات أدركت أن علي أن أخوض حربًا مريرة مع ذلك الطفل المزعج في داخلي .. الطفل المزعج يصرخ ويركل الأرض بقدميه: "لا أحلام ؟.. كيف ؟؟"

ثم ينطلق في سباب بذيء ويضربني ويعضني، لكني في كل لـــيلة أصفعه وآمره أن يخرس .. لا أحلام يا ابن الـــ (...)... لن يكـــون هناك غد .. الغد أخذوه منك وعليك أن تقبل كما قبلت ألا يكون عندك مأكل أو مشرب أو ثياب أو سقف أو حبيبة أو كرامة أو أسرة أو ثلاجة أو هاتف أو تلفزيون أو ربطة عنق أو أصدقاء

أو حــذاء أو ســراويل أو فلوجــستين أو واق ذكري أو أقراص للصداع أو مؤشر ليزر ..

يطلق المزيد من السباب البذيء ثم ينام ...

حاضــر طوبيييييييـــــ (ماذا تنتظر ؟) ـيييييـــــــــ (لا شيء) ـــــــــــــــييل قاس ..

* * *

لــم أكــن الأشجع ولا الأقوى .. لذا تقدم (عبد الظاهر) منهم وهو يلوح بالسنجة التي يحملها ، وقال بصوت أراد أن يكون قويًا فخرج متوترًا متحشرجًا:

ـــــ"مــاذا تريد يا (بيومي) ؟.. منذ زمن نحن كقطارين على قضيبين .. يتحركان عكس بعضهما لكنهما لا يلتقيان .."

أطلق بيومي سبة، وانفجر ضاحكًا .. بصق وقال:

ـــــ"مــن لكــم بمعرفة القطارات يا أولاد العاهرات ؟.. أنا أذكرها جيدًا وركبتها أكثر من مرة .. كانت القطارات لا تلتقي إلا عــندما تقــع حادثـــة، عندها كانت الجثث الممزقة والدماء تغطي الحقول !"

كان كلامه واضحًا .. لقد تجاوز حد التلميح ..

مــد يده في الجوال الذي يحمله (سليمان) وأخرج جثة الكلب العملاق .. رفعه من عنقه برغم وزنه الثقيل، ورأيت العضلة ذات الرأسين تتكور مبللة بالعرق لامعة في ضوء اللهب:

ـــ"هذه المكالمة لنا .. هذا يلزمنا .. "

لم نكن لنتحمل هذا أيضًا .. المعدة خاوية والجائع مجنون .. بعـــد كل هذا الجهد يضيع منا الكلب الذي ظللنا ننصب له الكمائن ثلاثة أيام ؟..

متـــى يمكـــن أن تجـــد كلبًا آخر ؟.. لم تعد هناك كلاب في الشوارع على الإطلاق .. لا قطط .. لا فئران .. نشوة الشواء في الخـــرائب والمـــزاح مع أنفاس الحشيش .. و(صفية) التي لم تذق أكلة محترمة منذ شهر ؟... كل هذا كان ينتظرنا لو لم نر ابن الـــ (.....) هذا ..

هـــنا فقـــد (عبد الظاهر) أعصابه وصرخ بصوت ارتجت له ممرات المترو:

ـــــ"ســـترون يـــا أولاد الـــ (...) !! .. هذا الكلب لنا .. لنا وحدنا وسنموت على جثته !"

وعلى الفور وثبنا جميعًا لنلتحم بهؤلاء الأوغاد ...

– ٢ –

سأموت خلال يومين أو ثلاثة ..

تسألني كيف عرفت هذا ؟.. أقول لك إنه لا فرصة للنجاة أمامي .. أنا ولدت خاسرًا ولسوف يظفر بي الفتى القادم من (يوتوبيا) لا محالة ..

لهذا أتذكر .. لهذا أمرر مذاق حياتي على لساني كما يمرر المرء مذاق النبيذ المر بعد ما فرغت الزجاجة ..

أتذكر أشياء وأماكن ووجوهًا وكلمات وأبيات شعر وكتبًا وروائح، لكني في أغلب الأحوال أتذكر نساء ...

اسمها كان (عزة)...

لماذا أتذكرها الآن ؟

(عزة) كانت تبيع الخبز على ناصية حارتنا ..

(عزة) تضحك .. (عزة) تهتز .. (عزة) تقطب .. (عزة) تغمز .. (عزة) تتتشي .. (عزة) تتشاجر .. (عزة) تتلوى .. (عزة) تهمس ... (عزة) تبتسم .. (عزة) تفكر ..

(عزة) تبيع الخبز ..

قالت لي مرارًا:

ـ "أنت تقرأ كثيرًا .. أنت مجنون .."

قلـــت لها إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي. في الماضي – تصور هذا – كانوا يقرءون من أجل اكتساب الوعي. حكيت لها عن كثير عزة فقالت لي:

ــ"اتنيل "

فتنيلت ..

قالـــت لي إنه مفترس .. إنه يغار عليها .. إنه يحمل مطواة قـــرن غـــزال يمكنه أن يرشقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الـــضخم يـــشتهيها .. يعـــتقد أنها له. بعد أن ينالها قد يضمها إلى سمية ..

وجاء اليوم المحتوم الذي انتظرناه في رعب .. أنا أردت أن أعرف .. هي أرادت أن تعرف .. السرجاني أراد أن يعرف ..

لا أذكـــر سوى أنه كان ينفخ من منخريه كالثور .. لا أذكر سوى أنه كان يمزق لحم ساعديه وصدره بنصل مطواته بلا سبب واضح، فقط ليريني أنه لا يخاف شيئًا ...

لا أذكـــر ســـوى الطعنة .. شق يبدأ من الجفن العلوي ويمر بالقرنية وينتقل إلى الجفن السفلي ..

لقـــد فقـــدت قرنيتي .. البلهاء يقولون (عينه باظت) لأنهم لا يعرفون ما هي القرنية .. أنا أعرف أشياء كثيرة .. حتى والنصل يمزق عيني كنت أدرك الفارق التشريحي بين القرنية والعين كلها.

بـــرغم هذا أعترف أنني جرحته كثيراً .. لو حسبت المهزوم بكمية الدم التي سالت منه فهو قد هزم. صحيح أنه من جرح نفسه

بنفسه .. لكن العبرة بمن ينزف أكثر .. حمله رفاقه ليبعدوه وهو يخور كالثيران متوعدًا إياي بالمزيد .. لابد أن الخمر لعبت برأسه جدًا ..

قلت لها وهي تضمد عيني النازفة إنني أشتهي قبلة ..

قالت لي:

ـ"أتنيل .. عينك باظت"

ضحكت برغم الألم .. برغم الدم الذي سال ليملأ فمي في وضعي الراقد وقلت:

ـ"ليست عيني .. قرنيتي فقط"

* * *

اسمها كان (نجاة)..

لها عين يمنى تالفة مثلي ..

كانت بلا عمل سوى أن تسرق أشياء من الباعة .

زوجها تركها لأنه حاول مرارًا أن يقنعها بأن (تفتح مخها) لكنها رفضت في إباء .. هناك كنز في الدار يمكن أن يكفل له حياة طيبة، لكن الكنز يرفض أن يباع ..

جاءها ذات ليلة ثملاً ومعه ثلاثة من رفاقه، ثم تركهم في العشة معها وخرج بلا سبب واضح .. لكنها خرجت وراءه وأغلقت العشة عليهم من الخارج وملأت الحارة صراخًا وعويلاً, وسرعان ما اكتشف كل واحد من الجيران في نفسه مدافعًا محمومًا عن الأخلاق.. هناك في العشة لحم بشري ثمل عاجز عن

المقاومة ينتظر من يصفعه ويركله ويبصق عليه. وقد فعل الجيران هذا في حماس ..

لم يجرؤ زوجها على العودة لأنه ضعيف الجسد والشخصية أمامها ..

(نجاة) تضحك .. (نجاة) تهتز .. (نجاة) تقطب .. (نجاة) تغمز .. (نجاة) تنتشي .. (نجاة) تتشاجر .. (نجاة) تتلوى .. (نجاة) تهمس ... (نجاة) تبتسم .. (نجاة) تفكر ..

(نجاة) تسرق الأسماك من الباعة وتكون تجارتها الخاصة .. كان هذا قبل أن يسرق سمكها وغد من (البدرشين)..

(نجاة) تقول لي:

ـ"تزوجني يا جابر .. سأكون خادمة تحت قدميك"

قلت لها إن الناس يجب ألا تتزوج إلا لكي تأتي للعالم بمن هو أفضل .. طفل أجمل منك .. أغنى منك .. أقوى منك ..

ما جدوى أن يتزوج الشقاء من التعاسة ؟.. الهباب من الطين؟..

ما الجديد الذي سنقدمه للعالم سوى المزيد من البؤس ؟

قلت لها إنهم في يوتوبيا يستحقون الزواج والإنجاب .. قالت إنهم فاسدون وأولاد كلب .. قلت لها إنهم هم من يحدد معنى الفاسدين ومن هم أولاد الكلب حقًا، لهذا من حقهم أن يتزوجوا وينجبوا ..

ـ"كل من يملك عشاء ما بعد عامين من الآن يستحق أن يتزوج وينجب"

اسمها كان (نجاة)..
لها عين يمنى تالفة مثلي ..
هل وجدت معها متعة ما ؟.. لا أذكر .. فقط أعرف أنني أحتاج لها الآن ..

* * *

اسمها كان (عواطف)...
لماذا أتذكرها الآن ؟
عواطف كانت ممرضة قبل أن تتوقف رواتبهن وقبل أن يجدن أنه لا جدوى من العمل .. أكثرهن عملن كطبيبات يعالجن مقابل مال زهيد. ما كن يعالجن به هو خليط من الأعشاب والعسل والوصفات البلدية، وأحيانًا بعض الأدوية التي يروجها سكان يوتوبيا ولا يستعملونها أبدًا.. أحيانًا بعض الأدوية المهمة فعلاً ، تلك التي كان العاملون هناك يسرقونها لنا وتباع بثمن باهظ ، ومنها المضادات الحيوية والمسكنات.
(عواطف) تضحك .. (عواطف) تهتز .. (عواطف) تقطب.. (عواطف) تغمز .. (عواطف) تنتشي .. (عواطف) تتشاجر .. (عواطف) تتلوى .. (عواطف) تهمس ... (عواطف) تبتسم .. (عواطف) تفكر ..
(عواطف) تعالج عيني ..
(عواطف) تقول إنها تحب الرجل الذي يتشاجر ويفقد عينه من أجل امرأة ..

(عواطف) تقول إن من قابلتهم من رجال كانوا على استعدا للتضحية بها مقابل عقب سيجارة ..

(عواطف) تقول إنني رجلها ..

(عواطـــف) تقـــول إنني أذكرها بطبيب أحبته يومًا، ثم أدمر المورفين ومات بجرعة زائدة ..

(عواطـــف) ســـمراء جميلة .. كانت جميلة .. الجوهرة التي اعتـــنت الطبـــيعة بصقلها وتجميلها لتلبسها الأميرات، فسقطت في الـــوحل .. الـــتقطها كلـــب أجـــرب بـــين أنيابه وراح يجري . ويجري..

وأنا أطارد الكلب ليس من أجل الجوهرة ..

بل لأنني جائع .. والله العظيم جائع ..

-٣-

الضربات تتطاير في كل صوب ..

ضـــربات .. طعـــنات .. ركـــلات .. بـــصقات .. شتائم .. قبضات .. نصال .. عرق ..

أنـــا ضعيف جدًا .. أنا لا املك ما يمكنني من مواجهة موقف كهذا .. فقط أتظاهر بأنني أقاتل على طريقة (كداب الزفة)، لكني أعـــرف حـــدودي وأعرف أنني لهذا السبب بقيت حيًا .. يجب أن تلتصق بالعصابات .. تلتصق بالأقوياء الذين يأخذون ما يريدون.. يجب أن تكسب مودتهم وتقنعهم أنك ضروري لهم، لكن لا تلتصق بهم أكثر من اللازم فتفقد حياتك عندما يفقدونها ..

أنـــا جربت حظي مع البطش وفقدت قرنيتي. هذا يكفي المرء في حياة واحدة. لن تكون خسارتي قرنية وأنفًا أو قرنية وذراعًا .

ضـــربات .. طعـــنات .. ركـــلات .. بـــصقات .. شتائم .. قبضات .. نصال .. عرق ..

عندما أدرك أن كفتنا هي السفلى أقرر الفرار ..

أســـتدير وأنسى كل شيء عن لحم الكلب المشوي .. أثب إلى قضيب المترو وأركض في الظلام.

لو حالفني الحظ لوجدت الممر الذي يقودني إلى الخارج.

هناك من يصرخ من خلفي:

ـ"انتظر !"

لا أعــرف هل هو من رفاقي ينومني على نذالتي، أم هو من أعدائــي يريد أن يلحق بي لينتزع عنقي. سيان .. فقط أنا أركض ولا أنظر إلى الخلف ..

في يوتوبيا لا يأكلون الكلاب .. يربونها للتدليل وللحراسة ..

كنا مثلهم يومًا ما، ثم تعلمنا انها مصدر رخيص للبروتين. لو حــدثت الثورة يومًا ما فلسوف نبدأ بالتهام كلابهم المدللة السمينة كلها.

هذا هو الممر .. أركض فيه وأتعثر. لقد فقدت المشعل لكني احفظ طريقي على كل حال.

هناك ملصق قديم لأحد أجهزة المحمول .. عرض خاص من شــركة ما .. كان هذا عندما كانت هناك شركات محمول قبل أن يــستولي عليها جميعًا (منصور بيه) ملك الاتصالات، وبالطبع لم يعد أحد يهتم بأن نستعمل هذه الأجهزة على الإطلاق، لكن الشبكة تغطي هذا الجزء من مصر على كل حال..

هناك ملصق آخر عن السمن ..

هــناك ملصق عليه فتاة حسناء شبه عارية قام احدهم بتشويه ملامحها وتسويدها .. يومًا ما فعل أحدهم هذا وزعم أنه فعله من أجــل الحفــاظ علــى الأخلاق. الحقيقة أنه اغتصاب رمزي لتلك الحــسناء، لكــن الحرمان الجنسي لم يعد من مشاكلنا اليوم (وهذا غــريب) .. مع كل هذا الفقر انهار حاجز الأخلاق وصار الجنس

أسهل شيء يمكنك الحصول عليه.. الجنس مقابل أجر تافه فإن لم يكن فهو الاغتصاب ..

لكنني برغم هذا ظللت أصبو لشيء آخر .. أصبو لما بعد الجنس .. الشيء الذي يجعلك بعد إفراغ شهوتك تظل جالسًا جوارها تصغي وربما تربت على خدها الأسيل بأناملك .

عاطفة غامضة لن أطلق عليها اسم الحب . لست بهذه السذاجة والغنائية .. سوف أطلق عليها اسم (ما بعد الجنس)...

(عزة) .. (عواطف) .. (نجاة)..

أفتح الباب الحديدي . أخرج إلى الهواء الطلق والظلام ..

أغلق القفل بعناية كي لا يتسلل واحد آخر. هؤلاء في أنفاق المترو يمكنهم العناية بأنفسهم ويعرفون كيف يخرجون ..

لقد نجوت بأعجوبة ..

لكني جائع ..

فيما بعد عندما التقط أنفاسي سوف أعرف إن كان من حسن حظي أن بقيت حيًا جائعًا، أم كان من الأفضل لي أن أموت في نفق المترو المظلم.

لا اعرف .. لا أقدر على الموت .. انا بكتريا مرغمة على الحياة مهما حدث لها ..

على الأقل هناك (صفية). أختي ...

ثمة شيء واحد في حياتي ظل نظيفًا أو نجحت في أن أجعله كذلك.. رأيت ذات مرة في فيلم غربي في تلفزيون القهوة فارسًا

نبـــيلاً يمـــشي مع امرأة فيرى بركة وحل .. عندها نزع معطفه وألقاه على الأرض لتمشي عليه فلا يتسخ حذاؤها ..

مـــع (صـــفية) لم ألعب دور الفارس .. لعبت دور المعطف ذاته..

لهـــذا أنـــا حـــي .. لن أموت وأترك (صفية) تسرق أو تهز ردفـــيها بائعـــة السلعة الوحيدة التي تملكها .. لن أموت وأتركها للنـــساء يخمـــشن وجههـــا ويطلقن عليها نعوتًا قذرة .. لن أموت وأتركها تجوع ..

لن أموت وأتركها تحيا بلا حياة ..

* * *

كـــشف المرصـــد الـــصحفي بملتقى الحوار للتنمية وحقوق الإنسان عن ارتكاب (١٧٢) جريمة عنف ضد النساء وذلك خلال الفتـــرة مـــن ٣٠ يونـــيو حتى ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٥ ، وقد كشفت الدراسة من واقع ما تم رصده الآتي :-

- ١٥٠ جـــريمة قتل بينهم ٦ جرائم اقترنت بالذبح، ٣ جرائم اقتـــرنت بحرق الجثث، ٣ جرائم اقترنت بتمزيق الجثث وعدد ٢ جريمة أجبرت الضحايا على شرب السم، وجريمة واحدة تم قتلها بإغـــراقها في مياه الترعة. وأخيرا عدد ٤ جرائم قتل غير متعمد لقيام الزوج بالعبث في سلاحه الناري . - ١٣ جريمة شروع في قتل و ٩ جرائم اعتداءات بالضرب.

جـــاء الدافع لارتكاب تلك الجرائم : بسبب الشرف: هروب الـــزوجة - خـــيانة الـــزوجة - الشك في سلوكها - الغيرة (٧٠)

جـــريمة، تردى الأوضاع الاقتصادية: مصروف المنزل – ياميش رمضان – نقل ملكية سيارة – النزاع على ميراث (٣٩) جريمة ، خلافـــات أســـرية : رفض خطبة أو زواج – التأخر في إعداد الطعـــام – خلافات بين الزوجة وأسرة الزوج – إهانة الزوج او صـــفعه – إنجاب إناث – مطالبة الزوج بالطلاق(٤٤) جريمة ، وكـــان العنف بسبب الدجل والشعوذة: إخراج جان وعفاريت من جـــسد الـــزوجة (٣)جرائم ،وجاء عدد الجرائم بسبب الفشل في محاولـــة اغتـــصاب الضحية (٦) جرائم ، فيما كان القتل بسبب الاســـتيلاء علـــى أموال الضحية (٧) جرائم ، وأخيرا قتل غير مـــتعمد: عـــبث بسلاح ناري، دفع الضحية أثناء المشاجرة (٩) جرائم .

مـــن حيث القائم بالجريمة: ارتكب الأزواج عدد (١٤٦) والأشـــقاء والأقارب (١٧) وعدد (٩) جرائم لم يكن هناك صلة بين الضحية والجاني .

تـــوزع الـــنطاق الجغرافـــي لمكان وقوع الجرائم كالآتى :- محافظـــة القاهرة شهدت عدد (٤٨) جريمة ، الجيزة (٢٣) ، قنا (١١) ، سوهاج (١٦) ،المنيا (٥) ، بور سعيد (٤) ،السويس (٥) ،كفر الشيخ (٣) ،الغربية (٦) ،البحيرة (٣) ، دمياط (٣) المنوفية (٩) ،القليوبية (٨) ،الإسكندرية (١٣)، الإسماعيلية (٥)، المنيا (٤) جرائم ، فيما لم يذكر محررو الخبر مكان وقوع (٦) جرائم .

تمــثلت الأداة المــستخدمة فــي ارتكاب تلك الجرائم في :- أســلحة بيضاء (سكين - ساطور- مطواة)أسلحة نارية (مسدس - بندقــية) ماء نار ،فئوس - شاكوش - شوم - عصى - حبال - قطــع خشب ،شريط لاصق - كي بالنار - مفتاح إنجليزى - ماسورة حديدية ، القتل بالخنق .

علــى أســاس المستوى التعليمي: كان هناك ١١ من حملة المــؤهلات العليا، (١٣) طالبًا بالثانوى والجامعة ،غير متعلمين ٣٢ فيما كان هناك (١١٦) جريمة لم تتوصل الدراسة للمستوى التعليمي لمرتكبيها لإغفال محرر الخبر ذكره .

* * *

الأرقام لا تكذب ....

من بين كل مائة جريمة عنف ضد النساء تقتل ٨٥ امرأة..

من بين كل مائة امرأة قتيلة هناك أربع يذبحن كالشياه واثنتان تحرقان ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أنا رأيت كل شيء يتهدم ..

أنذرتهم ألف مرة، لكنهم لم يصدقوا أو صدقوا ولم يبالوا ..

أحيانًا أشعر أن المصريين شعب يستحق ما يحدث له. شعب خنوع فاقد الهمة ينحني لأول سوط يفرقع في الهواء.

في الماضي عندما كنت أتفلسف قلت لأحد أصدقائي:

ــــ"لقد جمع (بلفور) اليهود في وطن واحد وعدهم به، وبهذا أراح العالم منهم .."

سألني في غباء عمن هو (بلفور) فقلت:
ـــ"هـو رجل جمع اليهود في وطن واحد وعدهم به، وبهذا أراح العالم منهم .."
بدت عليه الدهشة وهتف:
ــ"يا سلام .. !... رجل جمع اليهود في وطن واحد ؟"
واصلت كلامي:
ـــ"اعتقادي أن هناك وعدًا آخر .. ثمة شخص جمع الأوغاد والخاملـين والأفاقـين وفاقدي الهمة من أرجاء الأرض في وطن قومـي واحد هو مصر .. لهذا لا تجد في اليابان فاقد همة .. لهذا لا تجد في ألمانيا وغدًا .. لهذا لا تجد في الأرجنتين أفاقًا .. كلهم هنا يا صاحبي !"
هتف في دهشة وهو يطلق أبخرة الحشيش:
ــ"يا سلام .. هناك من وعد الـ ...."
ثم لم يستكمل العبارة لأن رأسه مال على صدره ونام .. خيط لعاب يسيل على ذقنه ..
كنت أقول لهم:
ـــ"هأنـتم أولاء يـا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلـون الكـلاب !.. لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات (مالـتوس) و(جمـال حمـدان) ونـبوءات (أورويل) و(هـ .ج. ويلـز).. لكـنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتـنامون ... الآن أنـا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالـي، وبـين الـشماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي

عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغنـــي عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيرًا حتى لو كانت هذه آخر نشوة له .. إننـي ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم !"

لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق ..

لا يهتمون البتة ..

إنهـم يبحـثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه ..

إننـي ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم !

- ٤ -

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

إنـــه يغطـــس فـــي المجاري ليقوم بتسليكها، برغم أن شبكة المجـــاري هناك جيدة ويقومون بصيانتها بعناية. يجب أن أقول إن تلـــك المجتمعات المغلقة لها خدماتها الخاصة المستقلة. بالنسبة لنا لـــم يعـــد هـــناك ما يدعى مجار .. نحن نتصرف .. تعتمد معظم البـــيوت على (الترنشات) وهناك عربة تكسح هذه ثم تتخلص منها فـــي موضع غير بعيد. بعض الناس بلا بيت أصلاً لذا لا تشكل له المجاري مشكلة .

من المسلي أن تلاحظ إلى أي حد انكمشت احتياجات المرء.. فـــي البدء كانت هناك شقق بها أجهزة هاتف وثلاجات وتلفزيون وحمامات .. لهذا كان الناس دائمي الشكوى من حياة الكلاب التي يـــرغمون فـــيها على مشاهدة برامج تلفزيونية سخيفة، مع انقطاع الكهـــرباء، وانقطاع اتصال الهاتف ، وانقطاع المياه .. عندما تفقد هـــذا كلـــه لا يعود هناك مصدر للشكوى .. هذا نوع خاص من الكارمـــا كمـــا ترى . عندما لا تكون هناك كهرباء فهي لا تنقطع أبدًا.

فلتزأر العاصفة .. فلتزأر العاصفة ...

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..
(صفوت) غواص مجار في يوتوبيا ..
(صفوت) يقرأ الجريدة ويقول لي:
ـــ"سوف يلغون الجمارك على الأخشاب المستوردة من الاتحاد الأوروبي.."
ثم ينظر لي في حيرة ويسألني:
ـ"هل هذا مفيد ؟.. ولمن ؟"
أقول له خلاصة فلسفتي التي كونتها طيلة هذه السنين:
ـــ"لا أفهم معنى هذا لكنه مؤذ لنا وخلاص .. أي قرار يتخذ في أي وقت هو ضدنا .."
(صفوت) يبدي علامات الفهم ..
(صفوت) على علاقة بخادمة. يبدو أنها مصابة بفقدان الشم أو زكام. وهذه الخادمة كانت تجلب له الفلوجستين. مخدومها لا يبالي بهذا السائل الثمين ويضعه في أي مكان .. وكانت هي تسرق قطرات من الزجاجة تجلبها لـ (صفوت)، و(صفوت) كان يأتيني بها ..
فيما بعد أضيف بعض قطرات الليمون على السائل لتعطيه تلك الرائحة وتلك الوخزة الباردة عندما تضعه على جلدك .. يتحول السنتيمتر إلى خمسة سنتيمترات، وهذه أبيعها بسعر باهظ لشبابنا . وعندما يشكون من أنهم لا يرون النيران الخضر أقول لهم في غضب:

ـ" لقد فتك الإدمان بأعصابكم يا أولاد الـ (...).. لم يعد من شيء قادرًا على أن يسطلكم سوى سكرات الموت ذاتها .. "

هكذا يخرسون .. فكلامي لا يخلو من صحة ..

غش ؟.. وما في ذلك ؟.. أفضل الغشاشين طرًا هو من يغش المخدرات .. هذا رجل قديس يعمل لمصلحة الناس في رأيي.. إنه مصلح اجتماعي ينعم بالمال !.

* * *

(صفوت) يعمل في يوتوبيا ..

وقد كنت في انتظاره لدى العودة من هناك ..

منذ اللحظة الأولى ترجل هذان فشعرت بأنهما غريبان ..

لا أعـرف كل واحد في المنطقة، لكني بالتأكيد أعرف البؤس والشقاء عندما أراهما .. أعرف الجوع .. أعرف الوهن .. قابلتهم كثيـرًا جـدًا حتـى صرت أعرفهم من بعيد بسهولة تامة ومهما تنكروا ..

هنا رأيت بؤسًا وشقاء وجوعًا غير أصيلين ..

رأيـت خـوفًا وهذا غير معتاد .. في عالمنا لا ترى الخوف كثيرًا إنما هو نوع من استسلام للمصير وقنوط ..

وقفت من بعيد أراقبهما ..

رأيـت الدهشة .. رأيت الاشمئزاز .. رأيت التقزز .. رأيت التوجس ..

هـذه جمـيعًا عواطـف دخيلة على عالمي .. لا احد يشمئز عـندنا.. لا أحـد يندهش .. أي طفل في التاسعة رأى كل شيء

وجـــاع كثيرًا جدًا، وغالبًا قد اغتصب ثلاث أو أربع مرات، لهذا تــرى على وجهه علامات من رأى كل شيء كأنه عاهرة عجوز مجربة

قلت لنفسي إن هذين ليسا من هنا .. ليسا من الأغيار ..

فلتقطع ذراعي إن لم يكونا من يوتوبيا ..

رأيت الفتى يمشي مع الفتاة وسط الزحام وأبخرة العرق ..

توقف عند .. عند (سمية)..

إنه يتفاوض معها ..

ذوقه رديء جدًا .. (سمية) أقبح الفتيات هنا وهي أقرب إلى ذكر مكتمل الرجولة، دعك من أن عمها هو (السرجاني) ذاته !.. السرجاني الذي أطار قرنيتي ..

ومــن عجائب المصادفات أن السرجاني فقد عينًا – أو قرنية – فـــي مشاجرة ليست بالبعيدة جدًا. لم تعد علاقتنا سيئة جدًا كما كانت لكننا نتحاشى المواجهة .. فقط نتبادل النباح من جديد عندما نرى بعضنا ..

لم يكن بلطجيًا .. إنه قواد .. صحيح أن جسده يوحي بالمهنة الأولـــى لكن دعني أؤكد لك إنه قواد .. لا يبيع قوة جسده وبطشه ولكـــن يبـــيع نساءه. بضاعته الوحيدة هي (سمية) وبالطبع لم تكن رائجة جدًا ..

هـــذا الفتـــى الأحمق اختار (سمية) وبهذا صار تحت رحمة السرجاني .. يمكنه أن يعمل أي شيء .. يهدده بالسنجة ويأخذ كل شـــيء معه، أو يتهمه بالاعتداء على شرف الأسرة – على طريقة

(ستيفان روستي) في الأفلام القديمة – ويرغمه على قبول أي شرط مجحف ..

السؤال الأهم هنا: ما دور الفتاة التي معه ولماذا لا يكتفي بها ؟.. هل هي أخته ؟.. من الذي يتفق مع بائعة هوى أمام أخته ؟.. بل من الذي يتفق مع بائعة هوى أمام أية أنثى أخرى ؟

على كل حال قد أخذ الفتى (سمية) ودخل بها إلى الخرائب ..

لن يتحرش به أحد . هي تحميه .. فقط لو صرخت أو استغاثت أو أصابها مكروه فلسوف يتحول إلى شرائط ... سوف يمزقه الفتية الموجودون في الخرائب يتعاطون الكلة، إلى أن يصل عمها لينهي عملية السلخ ..

كان الفضول يستبد بي كي أعرف أكثر، لذا نسيت كل شيء عن (صفوت) وما يحمله، ورحت أشق طريقي وسط الخرائب بحثًا عن (سمية) وزبونها ..

على الأرجح سوف تواجه الفتاة التي معه المشاكل.. أنا لا أطيق أن أرى فتاة في مأزق، لأن هذا يذكرني بـ (صفية)...

أعتقد أن بوسعي أن أنقذها لو حدث شيء ..

لست قويًا لكنني ذو شعبية، كما إنني من شلة (عبد الظاهر) وهو يفرض علي حمايته . أي اعتداء علي هو اعتداء على الأخير، وهذا ليس أمرًا هينًا ..

كنت أقف هناك في الظلام، عندما فوجئت بمنظر غريب .. الفتى يهوي على عنق (سمية) بسيف يد فتهوي كجوال ثقيل على

الأرض. لــم يكــن يــريدها كامرأة .. كان يريد إيذاءها لسبب لا أعرفه ..

أو ربما أعرفه !

لكنه غبي فعلاً... السرجاني لا يترك سمية تغيب عن عينيه، وبالتالـــي لابد من واحد يراقبها من بعيد ليضمن أنها لن تهرب أو تأخــذ المزيد من المال من الزبون .. هكذا عرفت أن النبأ وصل إلى السرجاني بسرعة البرق ..

عــشرة مــن شبابنا يركضون في الظلام .. يثبون فوق بقايا الجدران المتهدمة والقرميد وأكوام القمامة .. يثبون فوق الصخور .. يثبون فوق اللحظة ...

إنهم يحيطون بالفتى وفتاته بينما تكومت (سمية) على الأرض لا تعرف ما يدور هناك ..

وصاح (سوكة) بصوته الحلقي الغليظ:

ــ"إنهما ليسا منا !... هذان من يوتوبيا !!"

الجزء الثالث

الصياد

- ١ -

الحقـد فـي العـيون كان واضحًا جليًا .. ذات النظرة التي ظهـرت فـي عـيونهم وهم يهدمون (الباستيل).. هم ذاتهم .. إن للرعاع جنسًا وشكلاً موحدين مهما تباينت بلدانهم ولغاتهم .. وفي الأيـدي التمعت نصال لا تنتمي للمدي إنما هي أجزاء من هياكل سـيارات تـم تحويلها لأدوات قتل ..هناك ماسورة مياه أو اثنتان على طريقة عصابات (نيويورك)..

ارتجفت جرمينال والتصقت بي .. لن نفلت من هذا ..

وشـعرت بـيد تفـتش جيبـي في غلظة، ثم خرجت حاملة الموبايل ..

عـيونهم تحتـشد على الجسد الراقد على الأرض .. الرسالة واضحة تمامًا وقد فهموها:

ــــ"إنهم يخطفون أي واحد منا يجدونه ليتسلوا به عندهم، ثم إنهم يقتلونه !"

أدركت أن الضربة الأولى هي التي ستفجر السد بعدها تنهال الـضربات .. فقـط من يبدأ بها ؟.. وداعًا جرمينال.. كانت حياة مملـة بـرغم كـل شـيء .. ربما كان الخلاص منها نوعًا من التغيير..

ـــ"لا تؤذوهم يا شباب .. إنهم أبرياء .. أنا رأيت الفتاة تسقط ولم يلمسها أحد.."

كـــان هذا أحدهم يتكلم في حزم.. لم أتبين ملامحه لأن عيني كانت تنظر إلى الموقف لا الأشخاص ..

قال أحدهم:

ــ"أنا رأيته يضربها يا جابر"

قال منقذي الغامض:الذى صار (جابر)

ــ"أنت لا ترى شيئًا يا بن الــ (...).. لقد أطارت الكلة عقلك وأعمتك"

ثم همس في أذني:

ــ"هل معك فلوجستين ؟"

ترددت فهمس:

ــ"إما هذا وإما أن ترى أذنيك على الأرض بعد لحظة !"

مـــددت يـــدي إلى جوربي وأخرجت الزجاجة الصغيرة التي تـــشبه أمبولاً يتم لصقه إلى الكاحل بشريط، فاختطفها مني ولوح بها أمام العيون:

ــــــ"هـــل تعرفون هذا ؟.. (فلوجستين) !.. من لم يجربه بعد فليعـــرف أنه شيء يختلف كلية عن (الكلة) والبانجو والصراصير .. خـــذوه وجربوا .. نقطة واحدة على الساعد ..لا تكثروا منه يا أولاد البلهاء فقد رأيت من يموت في ثوان لأنه وضع نقطتين"

يبدو أنهم كانوا جميعًا يعرفون ما يتكلم عنه ..

على الفور نسوا كل شيء عن الانتقام، وانقضوا على الأمبول وراحوا يتبادلون الشتائم البذيئة .. فجأة لم يعد لنا وجود..
أحدهم حاول أن يركض بالأمبول فوضع آخر ساقه في طريقه فسقط .. انقض على الأمبول ونزعه فقط ليغرس أحدهم إصبعيه في عينيه .. هنا انقض أحدهم يعض مؤخرة هذا الذي غرس إصبعيه .. في هذا الوقت كان الذي سقط قد هب على قدميه وركل من يعض المؤخرة في وجهه .. كتلة أجساد تتصارع فلا تعرف أبدًا من أين يبدأ هذا وينتهي ذاك .. من المغلوب ومن الغالب ؟
لم يسأل أحدهم عن كيفية حصولي على هذه الكمية .. لابد من التعاطي أولاً ثم الفهم بعدها .. فقط الحمقى هم من يتوقفون أمام الفلوجستين ليتساءلوا عن مصدره ..
لو توقفوا لحظة لأدركوا أن وجود الفلوجستين معي يؤكد التهمة ..
صاح جابر في الجمع الذي لم يعد يسمع ولا يرى:
ـــ"إنهما لصان !... لقد سرقا هذا الفلوجستين من كلاب يوتوبيا !"
كأنه يمنحنا بهذا صك غفران !
هنا رأيت ذلك العملاق القواد قادمًا من بعيد وهو يلوح بسيفه مطيرًا رقابًا وهمية، بينما تنطلق منه قذائف من الشتائم .. شتائم لا يمكن التلميح لها هنا ..
كان قادمًا نحونا وهو يرغي ويزبد، هنا ابتدره الفتى صائحًا:

ـ"فلوجستين يا سرجاني !... فلوك !... فلوك !"

لم يخفف الرجل من سرعته إنما غير مساره بعد ما كان متجهًا مباشرة نحوي، ليندفع نحو المتقاتلين .. لم أفهم ما حدث لكني متأكد من أنه هوى بسيفه عليهم .. يبدو أن استيعاب هؤلاء القوم سريع جدًا، وترددهم معدوم . الصقر الذي لا يجد وقتًا ليفهم ما يدور هنا، ولكنه ينقض ثم يفهم ..

أشار لنا الفتى منقذنا من طرف خفي لنبتعد فجرينا وراءه ..

لو لم نثق فيه فبمن نثق ؟

* * *

كشف الدكتور أحمد عكاشة في أحد المؤتمرات عن أن هناك في مصر أكثر من مليوني مدمن, و١٢ ألفاً يتعاطون الهيروين, ومليون يتعاطون مخدرات أخرى كالبانجو وأبي صليبة في المرحلة العمرية من ١٢ إلى ١٩ عاما.. يتصدر البانجو القائمة ويليه الحشيش .. يعرف الباحثون جيدًا أن المخدرات وراء تزايد معدلات الجريمة في مصر من خطف واغتصاب السيدات وقتل الآباء, وأنها تستنزف سنويا ما لا يقل عن مليار جنيه من تكلفة المكافحة والتهريب.

* * *

وسرعان ما كنا في مكان ما من هذه الخرائب .. ثمة كوخ صغير مكون من قطع خشب وأجزاء مفككة من هيكل سيارة وصحف وأشياء غريبة جدًا.. أزاح قطعة من المشمع لندخل ففعلنا هذا مجبرين ..

كانـــت حالــــة الكوخ من الداخل أسوأ .. هناك إطارا سيارة يـــستعملان كمقعدين، وهناك موقد كيروسين صغير وهناك أكوام من الكتب لم أر مثلها في حياتي ..

الدلـــيل الوحـــيد على وجود كهرباء يأتي من مصباح واهن يتـــصل ببطارية سيارة عتيقة . وقد تم تعليق سلك المصباح على عـــصا تبـــرز من الخشب .. إضاءة لعل الظلام منها افضل منها وأكثـــر بهجة .. إضاءة سقيمة .. إضاءة خلقت كي تنطق كلماتك الأخيرة فيها قبل أن تخرج الرغوة البيضاء من فمك وتموت ..

للمرة الأولى أتمكنٍ من تفحص ملامح هذا المنقذ .. كان في الثلاثين من عمره نحيلاً منكوش الشعر تبدو عليه بوضوح سمات ســـوء الـــتغذية، لكـــنه قوي البنيان كالذئاب. وعلى أنفه نظارة تم لحامها بالنار ألف مرة، ومن تحتها وجه امتلأ بالخياطة كأنه وجه المسخ في أفلام (فرانكنشتاين) .. لاحظت كذلك أن له قرنية ذابت وتحولت إلى عجينة بيضاء .. قلت له:

ـــ"شكرًا على إنقاذنا .."

قال وهو يزيح بعض المهملات ليسمح لنا بالجلوس:

ـــــ"اســـمي (جابر).. لا شكر على واجب ..أكره القتل على الجانبين، برغم أنكما جئتما طبعًا للفوز بتذكار فريد ! .. أنتما من يوتوبيا طبعًا !"

ـــ"لا .. لسنا من .."

نظر لي في حدة بعينه التي تحولت إلى عجين وقال:

ـــ" لا تحاول خداعي .. كلنا يعرف ما يفعله اللصوص عندما يتـــسللون لنا .. ومتى فرغوا من مهمتهم جاءت طائرات المارينز لتـــنقذهم مـــع صيدهم .. ماذا يقول لك أبوك عندما تعود له بواحد منا؟.. (كخ) ؟.. عيب ؟ .. يا للقسوة !"

نظرت إلى جرمينال فنظرتْ لي ..

شـــعور بعدم الراحة يغمرنا .. نحن لم نخدع أحدًا. الآخرون كانوا سيمزقوننا في الحال، أما هذا فيدخر لنا مصيرًا لا أعرف ما هو لكنه بطيء .. بطيء وكل ما هو بطيء قاس ...

ـــ"ما اسمك ؟"

قلت بلا اكتراث:

ـــ"علاء"

ابتسم في خبث وقال:

ـــ"طبعًا لو حسبت أنني سأصدق لحظة واحدة أنك علاء فأنت تـــرى فـــي وجهـــي غباء، لكن لا يهم .. لا قيمة للأسماء إلا في جعلـــك تعرف أنني أوجه لك الكلام .. سنفترض أنك علاء ولتكن هي مها .. علاء ومها .. جميل .. هل أنتما أخوان ؟.. سأفترض هـــذا كـــذلك .. لكن لو لم تكونا أخوين فلتعلما إنني لن اسمح بأي شـــيء تحت سقف بيتي أو تحت قماش عشتي، لأنني لم آت بكما لهذا الغرض، ولا أعيش وحدي"

سمعنا حركة ودخلت الكوخ فتاة في العقد الثاني من العمر .. يبدو أنها مليحة وإن كانت قذارة أسمالها تخفي أي حسن .. القذارة جعلـــت ثوبها صلبًا لا يرف ولا يهتز كأنه من جلد مدبوغ.. نظرة

الحيوان الخجول الوجل المتواري في الدغل تبدت في عينها عندما رأتنا .. فيما بعد عرفت أن هاتين العينين تنطقان بكل شيء كأنهما متصلتان بالروح مباشرة ...

قال لها باسمًا:

ـــ"هذه أختي .. تعالي يا (صفية).. كنت تسألين عن منظر هـؤلاء الأثـرياء الذين يقيمون في مستعمراتهم الخاصة .. هذان منهما !... "

نظـرت لنا في عدم فهم .. نحن نبدو في حالة أسوأ منها .. قال الفتى:

ـــ"هذا لزوم التنكر .. نوع من الشحم الذي يضعه الممثلون على وجوههم.. لقد جاءوا ليظفروا بواحد منا يتسلون به .."

وبدأ انفعاله يتزايد رويدًا رويدًا كأنه يبصق الحقد الذي يتراكم فوق روحه:

ـ"لماذا لا تتركوننا وشأننا ؟.. سرقتم منا الماضي والحاضر والمستقبل .. لكنكم تكرهون أن تتركونا نعيش .."

وقـبل أن أفهـم مـن أين جاء ولا متى وجدت نصل سيف عملاق تحت ذقني .. ومن بين أسنانه الصفر قال:

ـ"هل ترى أن آخذ منك تذكارًا كما تفعلون معنا ؟... إن أذن فـتاة سـتكون تذكارًا ممتازًا .. أذن دقيقة حمراء نظيفة .. سوف يحسدني الجميع عليها وربما اقترضوها مني .."

ثم انفجر في ضحك وحشي .. ضحك وحشي .. وحشي ..

ظللنا صامتين.. كنت حائرًا بين إظهار الخوف فأشعل ساديته أكثـر، أو إظهـار اللامبالاة فأثير غيظه وجنونه .. النتيجة إنني ظللـت أرقب وجهه بوجه كالصخر ليس عليه أي تعبير. ونظرت لجـرمينال بطرف عيني فوجدت أنها على الأرجح قررت الشيء ذاته ..

في النهاية هدأ .. فقال للفتاة:

ـ"أعدي لنا شيئًا يؤكل .."

* * *

كان اسم صاحبه (عزوز)..

ضـخم الجثة له عين يسرى ترفّ طيلة الوقت . كأنه يتوقع الشؤم منذ ولد ..

عزوز دخل الخرائب ليقضي حاجته في تلك الليلة عندما ظفر به ثلاثة من يوتوبيا .. اضطروا لقتله عندما لم يتمكنوا من خطفه. ثلاثة فتية أقوياء البنية في عيونهم قسوة وبرود وتعال..

لم يعرفوا هنا ما حل به إلا عندما رأوا طائرة المارينز تحلق فوق الخرائب، وكشافاتها الساطعة تمسح المكان. عندها عرفوا أن أحدهم سقط ..

راح الـناس يقذفون الهليوكوبتر بالحجارة، وأخرج (مرسي) المسدس الذي قام بصنعه بنفسه في ورشة خراطة، وأطلق طلقتين على الطائرة ..

ارتفـع الوحش المزمجر وهو يصوب كشافاته في كل اتجاه، ثـم هبط قليلاً، وأمكنهم أن يروا جندي المارينز الجالس على باب

الطائـــرة المفتوح وقد وضع البندقية الآلية بين فخذيه، وراح يطلق الرصاص بلا تمييز على جموع الغاضبين ..

سقط كثيرون .. سقط (مرسي) ذاته ..

والطائــرة تدخل إلى الخرائب، ثم يتدلى منها سلم من الحبال .. يتــسلق الفتية الثلاثة السلم وهم يصرخون صرخات وحشية، ثم ترتفع الطائرة ..أولاد الكلب حسبوا أنهم يمثلون فيلمًا أمريكيًا عن حـــرب فيتـــنام .. الفتـــية صاروا داخل الطائرة وهم ينظرون من أعلـــى إلـــى الجمـــوع الغاضبة .. أحدهم لوح بشيء دام في يده وأطلق سبة بذيئة ..

هـــرع (جابر) إلى حيث كانت جثة مرسي والتقط المسدس .. ثـــبت يده اليمنى باليسرى وأحكم التصويب، لكن الطلقة التي دوت لم تجرح أحدًا. فقط آلمت ذراعه بشدة ، وتردد صداها على مدى دهور..

وابتعدت الطائرة ..

هـــرع الجمـــيع إلى الخرائب على ضوء المشاعل .. وهناك جـــوار جدار وجدوا جثة عزوز وقد مزقتها الطعنات. فقط لم يكن لـــه ســـاعد .. لقـــد تعب فتية يوتوبيا كثيرًا حتى انتزعوه، ومن الواضـــح أنهـــم لا يملكون خبرة الجزار في التشريح . لكن لو لم يأخذوا تذكارًا لما صدقهم أحد في يوتوبيا عندما يعودون ..

ابتعدت الطائرة ...

لكنها تركت المزيد من الحقد الأعمى الأسود الذي لا يجد قناة ليسيل فيها ...

أقسم أخو (عزوز) الذي لم يكن يطيق أخاه وهو حي، ليقطعن ساعد أي واحد من قوم يوتوبيا لو سقط في يده .. الجديد في الموضوع هو أنه سيفعل هذا بأسنانه وليس بالسكين ..

الفرصة لم تأت، وإن ظل الجميع ينتظر في شغف ليرى كيف يحدث هذا ...

يعرفون أنه سينفذ انتقامه حرفيًا، ولكن مع أي واحد تعس من الأغيار يقع تحت يده في المشاجرة القادمة. هناك من سيفقد ساعده لأنه نافس (عزوز) على بقايا رغيف.. هذا مؤكد ..

هذا ما حكاه لنا جابر وأنا قبل أي واحد آخر أعرف أنه صحيح ..

- ٢ -

والآن يا صغيرتي انظري لي واتلي صلاتك الأخيرة ..
إن عناقـــي المشبوب سوف يهشم ضلوعك .. سوف أعتصر روحك ذاتها ..
عندما تصعد إلى السماء مهشمة تستند على عكازين ..
سوف تسألها الملائكة عما حل بها ..
ستقول: لقد نمت مع الشيطان ذاته ..
الشيطان الذي أثملته صرخات العذارى قبل الذبح ..

من أغاني الأورجازم

* * *

الطعـــام الـــذي أعدتـــه لنا (صفية) هذه كان خليطًا من الفول والطعمـــية طعام الأغيار المقدس .. أحيانًا نأكل هذه الأشياء طبعًا علـــى سبيل التغيير لكن ليس بهذه الطريقة !.. بقايا أوشكت على الفساد من عدة وجبات سابقة قامت بخلطها وتسخينها على الموقد، ثـــم صبت على الخليط زيتًا وملأت قبضتها بالتوابل ونثرتها على الطنجرة..

قال (جابر) مفسرًا:

ـــ"نحن نكثر من التوابل لأنها تخفي طعم أي شيء .. تخفي طعــم الدجاج الفاسد والفول الحامض والبيض الممشش ...التوابل هــي السلعة الوحيدة التي لم يزدد سعرها لأنها ضرورية كي نبقى أحياء .."

وناولنـــي طبقًا وآخر لــ جرمينال.. ثم ناولته الفتاة قطعة من خبز مسود فاحتفظ بها لنفسه ..

كــنت قــد أكلت الفول من قبل كما قلت .. إنه يساعدك على التغييــر عندما تمل إفطارك المعتاد، لكن جهازنا الهضمي لم يعد يــتحمله .. لهــذا أحجمت عن الأكل لأني لا أعرف كيف سيكون قضاء الحاجة عندهم . لا أعني أنني لا أعرف .. بل لا أريد ..

قال وهو يقلب الملعقة في طبقه:

ـــ"بالطــبع لا تفهمان شيئا عن الوضع الذي صرنا إليه .. لكنـــي أكره ألا أخبركما بكل شيء .. الصورة التي تريانها كانت موجــودة مــنذ الــبداية لكن بشكل غير واضح، ثم تضخمت شيئًا فــشيئًا ... يــصير الأغنــياء أغنى والفقراء أفقر، ثم تأتي لحظة يحــدث فيها الانهيار.. ويبدو لي أن هذا حدث في العشر السنوات الأولــى من هذا القرن .. فجأة انهار السد .. لم تعد السياحة قادرة علــى إطعــام هذه الأفواه .. إسرائيل افتتحت قناتها التي صارت بــديلاً جاهزًا لقناة السويس .. الدول الخليجية نضب بترولها أو تم الاســتغناء عــنه بعد ظهر (البايرول)، وطردت العمالة الوافدة .. هكــذا وجد الاقتصاد عليه عبئًا قاصمًا، وانعدمت الخدمات للفقراء لأن الدولــة أعفــت نفسها تمامًا من مسئوليتهم، وخصخصت كل

شــيء .. لم تعد هناك حكومة أو لم تعد هناك حكومة تعبأ بنا .. مــع الــوقت تــوقفت الرواتب وتوقفت الخدمات وذابت الشرطة وبالتالـــي لم تعد علينا ضرائب... كان آباؤكم من طبقة استطاعت أن تــستخدم نفــوذها للإثراء .. حسابات مصرفية في الخارج .. قــروض من المصارف .. احتكار .. كل شيء كان في مصلحة آبــائكم وضدنا على طول الخط .. هكذا استطاعت هذه الطبقة أن تتماسك وتزداد ثراء بينما هوينا نحن إلى الحضيض .. لكن الحياة معــنا صــارت أمــرًا مستحيلاً... اضطرت هذه الطبقات إلى أن تعــزل نفــسها طلــبًا للأمـــان في تلك المستعمرات على الساحل الــشمالي، وقــد استعملوا رجال المارينز لأنهم يضمنون ولاءهم بيــنما لا يضمنون ولاء البودي جارد المطحون بدوره .. إن فكرة أن يثور محيط الفقر هذا كانت تؤرقهم .. كل الثورات الشعبية في الــتاريخ بدأت بذبح الأثرياء .. هكذا تكون مجتمعان أحدهما يملك كــل شيء والآخر لا يملك شيئًا .. أهمية المجتمع الثاني لا تزيد علـــى كونه سوقًا استهلاكيًا لا بأس به .. حتى لو كان يعاني الفقر فــإن كثافــته السكانية تسمح بكل شيء .. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرًا ..."

ثم توقف عن الأكل وسألني:

ـــ"هل لديكم إسرائيليون في يوتوبيا ؟"

قلت في دهشة:

ـــ"كثيرون .. أعز أصدقائي منهم .."

قال وهو يعاود المضغ:

ـــــ"هـــذه سمة مهمة لدى قومك .. لقد اتخذوا موضعهم في الـــشرق الأوســـط الجديد الذي كانوا يتحدثون عنه .. المثلث الذي حلمـــت به إسرائيل كثيرًا .. مال خليجي (قبل أن ينضب) .. ذكاء إســـرائيلي .. أيد عاملة مصرية رخيصة .. نحن الفقراء لم نكف عن اعتبار إسرائيل عدوًا"

قلت في غيظ من كل هذه المحاضرة:

ـــــ"ولماذا أعتبر إسرائيل عدوًا ؟.. هل لمجرد أن هذا يروق لك ؟"

نظر للفتاة وتبادل ابتسامة منهكة وقال:

ــ"نم الآن ..نم .. إن نصف ما أعرفه لا تعرفه .. والنصف الآخـــر لا يهمك أن تعرفه .. نم وفي الصباح نرى كيف تخرجان من هنا محتفظين بأذنيكما .."

ثم هز الملعقة في يدي وقال:

ـــــ"لا ألاعـــيب .. إنهم يعرفون مكاني وسوف يعودون هنا عـــندما يزول مفعول الفلوجستين .. عندها يجب أن أكون موجودًا لأحميكما وإلا ...."

وأشار لعنقه بحركة ذات معنى..

* * *

هكـــذا لم نستطع الفرار .. لم يكن هذا مطروحًا دعك من أننا كنا مرهقين فعلاً.. ألعن ليلة في حياتنا ونحن نجلس متلاصقين في هذا الكوخ كريه الرائحة لا نجرؤ على أن نتمدد أو نلمس أي جزء

مــن الجــدار ... هكذا سوف نبقى حتى الصباح وبعدها ؟.. كل شيء يتوقف على خطة هذا الفتى ...

أنــا لا افهمه .. أعتقد أنه من الطراز المثقف في وسط ليس وسطه .. الخروف الذي يفكر يصير خطرًا على نفسه والآخرين. أنا أعتبر مثقفًا في يوتوبيا .. أنا من القلائل الذين قرءوا كل شيء وقــع تحت أيديهم، لكن هذا لا يجعلني أتعاطف معه ذرة .. ليست الثقافة دينًا يوحد بين القلوب ويؤلفها، بل هي على الأرجح تفرقها، لأنهــا تطلــع المظلومــين على هول الظلم الذين يعانونه، وتطلع المحظوظــين علــى مــا يمكن أن يفقدوه .. إنها تجعلك عصبيًا حــذرًا.. دعك من تحول قناعاتك الثقافية إلى دين جديد يستحق أن تموت من أجله، وتعتبر الآخرين ممن لا يعتنقونه كفارًا ..

كــان شخير (جابر) قد بدأ يتعالى هو راقد في الركن منكمشًا على نفسه..

ماذا يريد من الحياة ؟.. لماذا يظل حيًا ؟

لو هددته بسكين لصرخ ولركل يدي .. لماذا ؟...

فــي الــضوء الخافت جلست أخته جوار جرمينال تنظر لها وهي شبه نائمة..

جــرمينال نائمة كطفل .. تتحرك شفتيها .. تهمس من روح معذبــة: ليلى .. ليلى ... ليلى هي أمها طبعًا (فلا احد في يوتوبيا يستعمل لفظة ماما أو بابا).. للمرة الأولى أراها مجرد طفلة معذبة تريد العودة إلى أمها. لم أر جرمينال إلا ثائرة ملولاً متعالية. لابد من النوم على الأرض كي تظهر لي حقيقتها ..

ظلــت (صفية) بضع دقائق تنظر ثم مدت يدها في حذر إلى شـــعر جــرمينال وراحت تتلمس خصلة منه .. ثمة شيء حيواني غريب في تلك اللمسة لم أرها من قبل إلا مع قرد مد يده ذات مرة يتحـــسس أناملي في وجل وفضول عندما كنت في حديقة حيواننا.
هبت جرمينال منتفضة وأبعدت رأسها قليلاً ثم غاصت في النعاس ثانـــية .. لكن الفتاة فعلت بالضبط ما توقعته .. وثبت للخلف مترًا بطـــريقة زادتنــــي اقتناعًا بنظرية القرد تلك .. هذه حركات غير بشرية .. هذه حركات تمت بصلة لانعكاسات حيوانية متوارثة ولا دخل للعقل فيها ..

قالت الفتاة بصوت مبحوح:

ــــــ"شـــعرها جميل .. جميل جدًا ونظيف .. لا أعرف كيف تصورتم أن تخدعونا .. ليس بشعر كهذا !"

ثم مدت يدها إلى يدي فأمسكتْ بأناملي برفق وقالت:

ــ"هل ترى الفارق ؟"

نعـــم أرى الفارق .. يد ناعمة نظيفة منمقة ويد خشنة متسخة مقـــصفة الأظفـــار .. الغريب أن الأولى هي يد الرجل والثانية يد الأنثى ..

قلت بلا مبالاة:

ــــــ"كنا في الظلام .. يمكنك أن تخدعي أي واحد في الظلام، وكنا سنعود بسرعة .."

ثم أشرت لأخيها النائم وقلت:

ــ"من أين يعرف هذا كله ؟"

ـــ"يـصمم أن يقرأ .. يبحث في القمامة عن كل كتاب قديم فهـي أشـياء لم تعد تباع .. هذه مزية أن تهتم بأمور لم تعد تهم أحـدًا .. علـى الأقل لن يسرقك الآخرون .. هذه الكتب ملقاة هنا مـنذ سـنين بينما لا يمكن أن تترك عود ثقاب من دون أن يأخذه أحد.. إنه ..."

ثـم راحت تسعل في عمق حتى توقعت أنها ستبصق رئتيها خارجًا .. فانتظرت حتى فرغت وأنا أنظر لها في دهشة فقالت في شيء من الفخر:

ـــ"هذا درن .. إنه يعود منذ تسعينات القرن الماضي.. ليس لدينا علاج، وهو لا يجدي على كل حال"

ثم أشارت لأخيها النائم وقالت:

ــ"هو من طبقة (التلامذة).. إنهم هؤلاء الذين دخلوا كليات أو جامعـات مـنذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملاً، ولم يستطيعوا أن يـصنعوا شيئًا بما تعلموه .. لكن علاقتهم بالكتب لا تنتهي .. منذ عـشرين سنة لم يعد لأحد فرصة على الإطلاق ..لم لو يكن أبوك ضابط شرطة أو رجل أعمال أو تاجرًا يورثك تجارته، فلا فرصة لـك على الإطلاق وسوف تنضم لهؤلاء الذين يشمون (الكلة) في الخرائب.. "

ثـم تـثاءبتْ كـثور وأغمضت عينها .. رحت أرقبها وأنا جالس.. مليحة بلا شك لكن كيف يمكن أن تجد هذه الملاحة تحت كـل هـذه الخـشونة والقذارة ؟.. أن تزيل كل هذه الأعوام من المعانـاة والفقر والجوع ؟.. مستحيل .. هذه الفتاة ستتزوج واحدًا

مـــن هؤلاء يوسعها ضربًا ثم تموت في إحدى نوبات غضبه .. لا يبدو أمامها مستقبل آخر ..

لا أعتقد أنني نمت ..

لو سألتني لقلت لك إنني لم أنم ..

لكـــن هناك ذلك الضباب الذي يحيط بك ويتأرجح بين الكثافة والخفـــة .. الوعـــي يـــنغمس في مستنقع ويخرج منه .. كذا كان نومي ..

— ٣ —

الـصباح .. لا إفطار لأن وجبة واحدة تكفي المرء .. دعك من أننا كنا زاهدين في الطعام كل الزهد.

الصباح و(جابر) خارج الدار ..

الصباح وصفية تقوم بأعمال غريبة من نوعها ..

تمزق الأوراق من مجموعة من كراسات المدارس القديمة ..

تقطع بعض العلب من الورق المقوى إلى شرائح طويلة ..

تسكب سائلاً أسود في إناء ..

تجمع أعواد ثقاب تالفة في كيس ..

تلحم قطعا من البلاستيك ..

تبري بقايا صابون وتضع عليها بعض البوتاسا الكاوية ..

تسكب بعض الماء في البطارية ..

تمزق قطعة من الليف إلى أشلاء ..

غـريب حقـاً هـو جدول الأعمال المنزلية لدى نساء هؤلاء القوم. قال (جابر) إنه لا يهمني أن أعرف كل شيء وهذا رأيي . ليـست مـتابعة نـشاطات الـصراصير ذات أهمـية إلا لعلماء الحشرات..

لــن أســألها عــن شـــيء .. لن أسألها عن تمزيق كراسات المــدارس القديمة، ولا عن سبب تقطيع علب الورق المقوى.. لن أســألها عــن الــسائل الأســود ولا عن سبب جمع أعواد الثقاب الــتالفة.. لن أسألها عن لحام البلاستيك ولا بري قطع الصابون .. لن اسأل عن الماء في البطارية ولا تمزيق الليف ..

صراصير ..

جــرمينال تزانـــي أراقــب (صــفية) في فضول .. تهمس جرمينال في أذني:

ـــ"لا تقل إنك تريدها .."

قلت إنني لا أمانع .. لها مذاق خاص فريد يختلف عن مذاق الفتــيات اللاتـــي اعــتدتهن . اللاتـــي لهــن نفس العطر والشعر الحريــري والوشم والقرط في الأنف أو الشفة السفلى .. اعرفهن وأحفظهــن كما تحفظ أنت الدجاج .. لا توجد دجاجة تختلف عن الأخــرى ويمكنك أن تشعر بأنك أكلت هذه الدجاجة من قبل، أما هــذه فلابد أنها تجربة تختلف .. لكني لن أجازف بمغازلتها ونحن تحت رحمة (جابر)..

لــن أجــازف بمغازلتها وطبقات القذارة تغلفها وربما تغلف روحها ..

لن أجازف بمغازلتها وهي تسعل دمًا كل خمس دقائق..

* * *

لــم يفعل (جابر) شيئًا طيلة هذا النهار .. لما سألته عما ينوي عمله بنا قال في غموض:

ـــ"انتظرا حتى الوقت المناسب .."
ـــ"ولماذا لم تتخلص منا ؟"
ـــ"لأنني أمقت العنف من الطرفين، ولأنكما جاهلان لا أكثر.. لــم تفعلا إلا ما يفعله الفأر الذي يحاول سرقة بعض الخبز لأنه لا يعــرف شــيئًا آخــر .. هذه غريزته وتلك فطرته . لكنكما لستما فأرين .. هذا ما أحاول أن أخبركما به .."
ثــم أخــرج علبة بها بعض الشحم، ولوث أنامله ثم قال وهو يضع يده جوار خدي:
ـــ"بعد إذنك !"
ـــ"تفضل .."
هكذا لوث وجهي ووجه جرمينال .. بعناية ودقة هذه المرة.. قام بتلويث أيدينا ثم انتخب لنا ثيابًا أكثر قذارة .. هذه المرة كانت هــناك أســتاذية لا شــك فــيها في لمساته، حتى بدت جرمينال كالمتــسولين واعــتقد أنني أبدو بصورة أسوأ.. ثم شرح لي كيف نمشي وكيف نتكلم ..
ـــــ"هــؤلاء قوم رأوا كل شيء وعرفوا كل شيء، لذا هم لا يــتكلمون تقــريبًا .. قللا كلامكما قدر الإمكان .. مثلاً لو أردت شــراء شــيء راق لـــك فلا تسأل عن الثمن كتلاميذ المدارس .. امــسك الــشيء بغلظـــة وانظر في عيني البائع متسائلاً.. لا تقل شيئًا.. سوف ينظر في عينيك بشراسة ويقول لك (مائة) مثلاً، ولا يــزيد .. عندها تأتي بحركة بذيئة من إصبعك وربما تطلق صوتًا قصيرًا من حلقك .. ثم ألق له بخمسين ولا تتكلم .. "

ثم فكر حينًا وأضاف:

ـــ"العـــادات الحمـــيدة تقتل هنا .. لابد من أن تبصق على الأرض مـــن حـــين لآخـــر .. تحسس عضوك التناسلي من فوق الثـــياب من وقت لآخر .. هي لابد أن تهرش صدرها ورأسها.. المفروض أن الأول يعج بالبراغيث والثاني بالقمل .. هذه لمسات مهمة وتقلل من النظرات الفضولية لكما"

قـــال لي إننا بصدد جولة يريني فيها ذلك العالم الذي اجهل كـــل شـــيء عنه.. قال إننا حران لو أردنا الفرار لكنه لا يضمن حياتينا لحظة أخرى بعد هذا ...

ــ"سوف ترتكبان جملة من الأخطاء، ولسوف يمزقونكما في اللحظة ذاتها .."

هكـــذا غادرنـــا الكـــوخ الحقير لنخرج إلى شوارع في غاية الازدحام والفقر .. هناك لمسات تدل على أنه كانت هناك حكومة يومًا ثم تخلت تمامًا عن كل شيء .. في الأزقة والشوارع الجانبية تحدث المشاحنات لأي سبب ومن دون مبرر ..

ــــ"إنهـــا أخلاقـــيات الزحام .. ضع ست دجاجات في عشة ضيقة وراقب كم تصير مهذبة .. لو أن دجاجة واحدة لم تفقأ عين جارتها أو تلتهم أحشاءها فأنا مخطئ .."

سألته وأنا أمسك بيد جرمينال الممتقعة ذعرًا:

ــ"لماذا تستمرون في التكاثر إذن ؟"

ــ"لأن التكاثر هو رفاهية الفقراء الوحيدة .. دعك من أن كل هـــؤلاء يعـــتقدون أن واحـــدًا من أبنائهم سيغير كل شيء .. في

انـــتظار هـــذا المجهول يتكاثرون، والصبي يسعى بحثًا عن رزقه كدجاجـــة .. لا أحـــد يعرف إن كان قد مات أو أكل أو نام .. في ســـن الحاديـــة عـــشرة يـــتعلم استنشاق (الكلة) وبعد هذا يضطر لارتكـــاب الجريمة كي يتعاطى ما هو أفضل .. طبعًا من يسرقه فقيـــر مثله لأنه لا أحد يستطيع أن يسرق منكم .. مستقبل مشرق كما ترى .."

ثم حك رأسه وابتسم:

ـــ"برغم هذا انخفض معدل خصوبتنا كثيرًا .. جيلان كاملان أكـــلا طعامًا ملوثًا ويعج بالهرمونات .. هكذا صار من المعتاد ألا ينجب المتزوجون لكن المحصلة النهائية هي أننا نتزايد بلا توقف على كل حال .. كانت هناك فرق إخصاء ثم انتفت الحاجة لها .."

هتفت جرمينال في ذهول:

ـــ"فرق إخصاء ؟"

ـــ"نعم .. ألم تسمعي عنها ؟.. مجموعات من رجال الشرطة الملثمين يهاجمون الفتيان .. بسرعة وبدقة جراحية يخدرون الفتى ويقطعون حبله المنوي ثم يخيطون الجرح ويفرون .. بهذا يصير عاجـــزًا عن الإنجاب للأبد.. في المتوسط كان يتم تعقيم ثلاثة فتية في الليلة الواحدة "

ـــ"وماذا حدث بعدها ؟"

ـــــ"متدينون كثيرون في يوتوبيا قالوا إن هذا حرام .. فلنعتمد علـــى الطعام الملوث ليقوم بالتعقيم بنفسه بدلاً من أن نتحمل نحن الـــوزر ! .. وهكـــذا تـــزايد نشاط تلويث الطعام، وقد تمت زيادة

جرعة مادة الجوسيبول في الزيوت التي نتعاطاها إلى أعلى معدل ممكـن لها، وهذه المادة شديدة الفعالية في قتل الحيوانات المنوية وتدميـر نـسيج الخصية .. برغم هذا نحن نتكاثر كالبكتريا .. لا تـوجد طـريقة للقضاء على البكتريا في العالم مهما استعملت من مضادات حيوية فعالة .. إنها تجد طريقًا دائمًا .. "

سألته السؤال الذي كان يلح علي ليلاً:

ـ"ولماذا لا تثورون ؟"

انفجر يضحك حتى سال دمعه وقال:

ـــ"هـذا شـيء يتكرر من حين لحين .. لكن ثورات القرن العشرين التي تحقق غرض الجموع قد صارت تاريخًا بائدًا .. لقد تعلـم مـن هم فوق من أخطاء الآخرين .. لن يرى أحد ثانية شاه (إيـران) الـذي يحلق بطائرته بحثًا عن بلد يؤويه، ولن ترى جثة (شاوشيـسكو) أو (موسـوليني) معلقة في ميدان عام .. إن النظام الأمني معقد متطور اليوم .. هناك ستة أجهزة أمنية تراقب بعضها ومهمـة كل منها حماية الحكام .. إن ثورات اليوم هي أقرب إلى (هوجة) ثم تحلق طائرات الهليوكوبتر لتلقي عدة قنابل وتطلق عدة طلقات فيتفرق الجميع .. "

فـي هـذه اللحظة اقترب منا رجل رث الهيئة له لحية غير حلـيقة، وإن كانت ثيابه توحي بأنها زي رسمي غير معتنى به .. ومد يده لنا:

ـ"هل معكما شيء يؤكل ؟"

هز (جابر) رأسه وواصل المشي .. ثم قال:

ـــــ"إنهم في كل مكان... لا توجد أعمال .. ما لم يجد عملاً في مستعمراتكم بالساحل الشمالي فلا أحد يريد منه شيئا .. سوف يقــضي حــياته يبحث عن بقايا الطعام الملقاة في أكوام القمامة ثم يموت بالدرن ذات يوم فيجدونه جوار جدار .. هذه هي حياته .."

كــنت في هذه اللحظة قد بلغت قمة التقزز والذهول .. أتذكر (يوتوبــيا) وبيتــي والــدولارات التــي أبعثــرها .. أتذكر الشلة والفلوجستين الذي أتحرق شوقًا له. أتذكر كلبي الذي يلتهم ما يشبع خمــسة مــن هؤلاء يوميًا ... لست مستعدًا لحظة للتخلي عن هذا كلـــه، لكنــي كذلك لا أبتلع فكرة وجود كل هذا الفقر .. الآن فقط أفهــم هذه الأسوار العالية ورجال المارينز والمطار الداخلي .. لو تركنا كل هذا لسال هذا الطوفان ليغرقنا ويقتلنا .. لا أعرف كيف وصل الأمر لهذا الحد لكن لابد من أن يستمر ..

جــرمينال راحــت تغلي وترتجف .. وراحت تغمغم من بين شفتيها:

ـــ"يا الله !.. أريد أن أعود !.. أريد أن أعود !"

ضغطت على يدها كي تخرس ...

* * *

كــان هناك رجل يقف وسط زحام حوله، ويبيع زجاجات بها سائل ملون مدعيًا أنها العلاج الشافي من الدرن والسرطان .. إنها خلطــة من الأعشاب صنعها هو ولا يعرف سرها اللصوص في (يوتوبــيا) كما قال.. إنهم ينفقون مالهم في هراء يبتاعونه بأغلى الأسعار بينما العلم كله هنا ..

عندنا العلم كله ..

عندنا العلم كله ..

عندنا العلم كله ..

هـــذه أدويـــة لا قيمة لها إلا انها رخيصة !.. أي إنها تعطيك مزية أن تتعاطى شيئًا ولا تنتظر الموت عاجزًا ..

هـــناك رجـــل يقف أمام منضدة خشبية مقلوبة عليها أجهزة صغيرة .. يقول صائحًا:

ـــ"أفضل أجهزة سرقناها من (يوتوبيا).. تعال الآن !... "

وتـــوقفت عيـــناي على شيء ونظرت لـــ جرمينال فوجدتها تنظر لذات الشيء في نهم ..

كـــان هـــناك جهاز محمول صغير على تلك المنضدة، وعلى بعد متر واحد منا !

لم يكن هذا جهاز محمول ..

كـــان فراشًا نظيفًا ووجبة ساخنة وحمامًا وجنسًا وفلوجستين وكئوس خمر وبيتًا وأصدقاء ...

صورة الجهاز الفاتنة لم تفارق ذهني ...

غادرنـــا الـــزحام فتأخرت جرمينال قليلاً جوار أحد الأزقة، وقالت إنها راغبة في قضاء حاجتها. قال (جابر) بلا مبالاة إن هذا بوســـعها ..كل مكان يصلح .. الخدمات الصحية لا وجود لها لأن شـــبكة المجـــاري صارت تاريخًا .. في الماضي كانت الحكومة تتـــشدق بتجديد شبكة المجاري، لكنها أهملتها عندما صارت هناك

وسائل أخرى للاستيلاء على المال وبعد ما صارت اللعبة واضحة: نحن لا نبالي بكم على الإطلاق .. فلتأخذكم مصيبة ..

غابت جرمينال في الزقاق لربع ثانية ثم عادت راجفة وهي تصيح:

ـ"إنه مليء بالشباب النائم !"

قال (جابر) ضاحكًا:

ـ"إنهم تحت تأثير (الكلة) ومسحوق الصراصير .. لا تخافي.. لو أن ملكة جمال الكون تعرت أمامهم لما حركوا ساكنًا.. هؤلاء انتهى أمرهم كرجال من زمن .. ربما انتهى أمرهم كبني آدمين أيضًا !"

هكذا عادت إلى الزقاق المليء بشباب لم يعودوا رجالاً.. ...

فجأة سمعت ضوضاء ..

فجأة رأيت منظرًا يشبه الغوغاء عندما هاجموا الباستيل .. حوالي عشرة رجال يحملون السيوف والعصي ويهرعون نحونا.. وهتف أحدهم وهو يشير لنا:

ـ"هؤلاء سرقوا المحمول !.. أنا رأيت الفتاة تدسه في جيبها!

— ٤ —

إذن هي فعلتها !..

متى وكيف ؟.. لم ألحظ هذا قط ...

انقض بعضهم على الزقاق فهرعت ألحق بهم، لأجد جرمينال تستند إلى جدار، وهي تمسك بالمحمول كأنها كانت تحاول طلب رقم .. رقم أمها في (يوتوبيا) طبعًا ... كانت ترتجف وعلى وجهها أعنف رعب رأيته في حياتي .. قطط قليلة أظهرت هذا الهلع وهي محاصرة في ركن زقاق ..

من فرط الانفعال راحت تهرش صدرها وشعرها في فظاظة وبحركة مضحكة، كأنها تقول لهم: أنا لست من تظنون .. أنا عامرة بالبراغيث !.. انظروا !!!

همس (جابر) في أذني:

ـــ"أحمقان !... من الذي يبيع المحمول وبه خط ؟... هذا يسهل اقتفاء أثره !"

خرج الرجال من الزقاق وهم يمسكون بجرمينال.. وأقسم أحدهم أنها يجب أن تلقى عقابها هنا والآن وبطريقة الإيذاء المهينة التي يجيدها الرجال مع النساء.. لقد تحول هؤلاء القوم إلى مخلوقات أبعد ما تكون عن البشر .. قشرة المخ لم تعد تؤدي أي

دور معهم .. فقط يتحركون للجنس أو العنف .. الاغتصاب يمنح الشيئين معًا ..

قال (جابر) وهو يقف وسط هؤلاء المسعورين:

ـــــ"اســمعوا .. هذه الفتاة جائعة .. أكثر جوعًا منا .. كلكم سرق يومًا بسبب الجوع .. لقد أخذتم ما لكم فاتركوها .. "

ثم هوى على خدها بصفعة ألقت بها مترين إلى الوراء:

ـــــ"متسول يسرق متسولاً !.. كانت الحمقاء تحلم بالاتصال بأخيها الذي خطفوه في (يوتوبيا) !"

هــنا فقــط هدأ الجميع، وقال أحدهم وهو يرفع يده بما معناه (انتهى التجمع يا رجال):

ـــــ"لن يعود .. سوف يتسلون عليه ثم يقطعون يده ويلقون به في الصحراء، ثم يذهبون لأداء العمرة سائلين الله أن يغفر لهم .."

كانت جرمينال تبكي فعلاً، فازداد بكاؤها حرقة .. هذه جاءت في الوقت المناسب لأنهم تفرقوا وهم يضربون كفًا بكف ..

عــندما ابــتعد الجميع، دنا منها (جابر) ووجه لها ركلة في خصرها أسقطتها أرضًا، وقال:

ـــــ"يــا بنت الـــ (..)... أقسم بالله أن هذه آخر مرة أحاول حمايــتكما .. قلت لكما أن تتصرفا على مسئوليتكما الخاصة لو لم تنفذا أوامري.."

* * *

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عــنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد

أزاحهـا المدعـو (حـبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ـ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

* * *

نهضنا ومشينا وراء (جابر) في خجل ونحن نبصبص بأذيال وهمـية .. لقد جاءت إذن اللحظة التي يصفعنا ويركلنا فيها واحد من هؤلاء .. صحيح أنه فعل ذلك كي لا يمزقنا آخرون، لكني لا أقـبل أن يمد أحد يده علي .. حتى (مراد) و(لارين) .. لقد رددت الـصفعة لـ (مراد) ذات مرة .. أصيبت (لارين) بنوبة هستيرية لأننـي مددت يدي على أبي، فقلت لها إن هذا ليس تفضلاً منه .. أما وقد جاء بي للعالم فعليه أن يتحمل مسئولياته في شجاعة ..

قلت لجابر في اشمئزاز:

ـ"لو ظننت أننا سنبقى هنا للأبد فأنت مخطئ"

قال دون أن ينظر لي:

ـ"لـم أتوقع هذا .. كما قلت أنتما حران في أن تتصرفا أو تفـرا لكني أعرف ما سيحدث بعد دقيقة .. لو أردتما البقاء معي فعليكما الامتثال التام لكل ما أقول .. أنا مَن يضع الخطط ويختار اللحظة المناسبة .. "

أذناه مليئتان بالصماخ ..

أصابع قدمه متقرحة تطل من صندل حقير ..

نظارته ملحومة بالنار ..

عينه تالفة ..
غده أسود ..
أخته حيوان مصدور..
طعامه فاسد ..
كتبه بالية ..
أحلامه موءودة ..
أفكاره عتيقة ..
أظفاره مسودة ..
شعره مجعد معجون بالتراب ..
اسمه (جابر)...
قومه رعاع ..
أصدقاؤه حثالة ..
برغم هذا كله يمشي كالبشر ويتكلم كالبشر ..
برغم هذا كله لم يرتم عند قدمي متوسلاً لي كي أقطع ذراعه..
برغم هذا كله يصفع جرمينال ويهددنا ..
ما أحمق هؤلاء القوم وما أشد سذاجتهم !

* * *

كانت هناك بائعة عجوز تضع كومة من الصّحف .. صحف جديدة غير مقروءة .. يبدو أنها تبيعها بالكيلو .. وثمن خمسة الكيلوجرامات بيضة كما قالت ..

ابتاع منها بعض الصحف مقابل علبة ثقاب، ثم عاد لنا وهو يتصفح تلك الأشياء .. ناولنا واحدة منها وقال:

ـــ"هذه هي الصحافة الوحيدة الرائجة اليوم .. خليط عجيب مريض من الجنس والدين والخرافات ونظريات المؤامرة .. غلاف الجريدة لا يخلو من عبارات (كشف المستور) و(في الغرف المغلقة) و(الجن) و(الاغتصاب) .. الخ .. مع تلميح عام يوحي بأن كل النساء عاهرات وكل الرجال قوادون .. لابد من عدة صور عارية من المجلات الأجنبية، مع وضع علامة سوداء على العينين، كأنهم لا يريدون فضح البريئات صاحبات هذه الصور .. وبرغم جو الانفلات الجنسي العام فإن العاهرات الفقيرات قبيحات كالأبالسة، لهذا يبتاع الشباب هذه الجرائد بحثًا عن فتيات حسناوات نظيفات لا يبصقن دمًا .. أما النوع الآخر من الصحافة .."

وفتح جريدة أخرى وأردف:

ـــ".. فهو عبارة عن رسائل حب موجهة للحكام .. هذه يصدرها قوم من يوتوبيا وسواها كانوا منا ثم سمح لهم الحكام بأن يعيشوا هناك، مفعمين بعرفان بالجميل وامتنان وتهيب يبلغ درجة العبادة .. هذه مشاعر تفوق مشاعر كلب وضع سيده أمامه خروفا مشويًا ينز منه الدهن .. لهذا يكتبون كلامًا لا يعني أي طرف ولا أحد يقرؤه إلا الحكام.. بالواقع لا يقرؤه الحكام لأنهم مطمئنون له. هذه المقالات نوع من بصبصة بذيل فكري. فيما مضى كانت هناك معارضة وكانوا يهتمون بمهاجمة هؤلاء الكتاب، ثم فهموا

أن تــدخلهم في رسائل الحب هذه قلة ذوق .. كأنك تقرأ خطابات غير موجهة لك !"

ثم أضاف وهو يطوح بالجريدة:

ـــ"هذه الصحف سلعة ممتازة للف الأشياء... كما أنها حلت مشاكل غياب المياه !.. "

لم أكن ذا مزاج للمزاح، فقلت له:

ــ"ماذا تنوي عمله معنا ؟"

ــ"سأرجعكما إلى (يوتوبيا) طبعًا .. لا نية لي في قتلكما .."

ــ"وكيف ؟"

نظر لي في غموض ولم يتكلم ..

الجزء الرابع

الفريسة

- ١ -

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعرف أنني سأموت بعد يوم واحد لا أكثر فلا تقل العكس .. لا تكـرر هـذا الهـراء وإلا طعنـتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة..

كـنت أكـرههما كالصراصير . من الجميل أن تكره بصدق وحـرارة. منذ دهور لم أكره شيئًا بهذا الصدق .. كل شيء ألقاه بعاطفـة اشمئزاز عميقة لكن لا كراهية. أنت لا تكره البصاق .. فقط تشمئز منه ..

من الجميل أن تكره ...

برغم كراهيتي تلك – وربما من أجلها – لا أنوي قتلهما ..

هما تحت رحمتي تمامًا ولو فتحت فمي فلن يطول الأمر قبل أن أراهمـا قطعًا من اللحم المفروم تأكلها الكلاب لو كانت هناك كلاب.

لكني بالفعل لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

هـذه هـي النقطة التي تحدد كل شيء .. الدليل الوحيد الذي يخبرنـي أننـي ما زلت آدميًا ولم أتحول إلى ضبع. إنني في هذا

أتفوق عليهما .. أتفوق على أهلي وجيراني .. أتفوق على ما كنته أمس ..

لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

الأهم أن كل لحظة تشعرني بأن وجوه التشابه بيننا قوية جدًا

كلانا هنا وهناك نعشق العنف ..

كلانا هنا وهناك نحب المخدرات ..

كلانا هنا وهناك نرى أفلام الاغتصاب في نهم ..

كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت ..

هناك يتعاطون المخدرات ليفروا من الملل ..

هناك يحترفون الدين لأنهم يخشون أن يضيع هذا كله، وهم لا يعرفون لماذا ولا كيف استحقوه ...

هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب اللحظة ..

هنا نحترف الدين لأننا لا نطيق أن تكون معاناتنا هباء بلا ثمن .. العقل البشري لا يتحمل فكرة مروعة كهذه وإلا جن ...

لهذا لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ...

ولكن كيف أفعل هذا بينما (سمية) تزوم كضبع غاضب ؟

* * *

الشخصية المصرية قد لاقت الكثير من المرمطة في المائة عام الأخيرة حتى صارت كزوجة عاملها زوجها بتوحش عدة أعوام، من ثم أصبحت هي ذاتها أقرب إلى الوحشية والشراسة. وكلما زاد الجهل قلت سيطرة قشرة المخ على السلوك، وهذا يجعل الجرائم التي ترتكبها الطبقات الدنيا حيوانية بالمعنى الحرفي

للكلمة ..وفي النهاية يقف القاتل ناظرًا لعدسات الصحافة النهمة بعينين غبيتين زائغتين ويكتفي بترديد: (أصل الشيطان وزّني)..

* * *

(سمية) جاءت في الخامسة عصرًا إلى كوخي ..

كانت ثملة أو هذا ما قدرته من مشيتها المترنحة ولسانها الثقيل. جلست القرفصاء على الباب مباعدة ساقيها لتتفادى بركة ماء آسن صغيرة هناك، وراحت تهرش شعرها بعنف ...

قالت وهي تنظر لي بعينيها القاسيتين الصغيرتين:

ـ"أنت كاذب بن كاذب .."

كنت أعرف ما تريد قوله، لكني تظاهرت بالغباء وسألتها عما هنالك . فقالت:

ـ"أنت تعرف أن الفتى ضربني على عنقي .. بعدها لم أشعر بشيء .. لكنني أعرف جيدًا أنه ضربني ... أنت كذاب بن كذاب.. قلت إنني سقطت دون أن يلمسني، ولولاك لمزقه الرجال.."

قلت وأنا أجلس القرفصاء بقربها:

ـ"أنا رأيتك تسقطين ولم أر أنه ضربك كما تقولين"

كانت غبية حيوانية .. لن اندهش لو قضت حاجتها وهي جالسة حيث هي... حيوان بليد يجلس هناك على عتبة داري ويهرش رأسه بلا توقف ..

ـ"لم استطع أن أعمل يومين كاملين .. أحيانًا أشعر كأنه أطار من عقلي برجين .. عمي يضربني بلا انقطاع .. "

ثم قالت في حزم ووجهها القبيح يتقلص:
ـــــ"سوف أخبر عمي أن الرجل ضربني .. السرجاني سوف يأخذ بثأر ابنة أخيه .. "
نعـــم .. السرجاني لا يرحم من يتلف بضاعته .. أنا أعرف هذا.. كله إلا عدة الشغل .. السرجاني يغار على (عزة) .. يحمل مطـــواة قـــرن غـــزال يمكـــنه أن يرشـــقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضخم يشتهي (عزة) .. السرجاني أخذ قرنيتي مني
ملت على سمية وقلت همسًا:
ـــــ"ســـمية.. أنا أعرف هذا الفتى .. بيني وبينك هو صاحب مزاج خاص .. هناك رجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى .."
قالت في دهشة:
ـــــ"كـــل الرجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى، والسبب أنهم أنجاس وأولاد (...)"
ـــــ"لـــيس كـــل الـــضرب سواء .. الضرب الذي تتلقينه من الزبائن يختلف عن تلك الضربة القوية على جذور العنق .. الفتى صـــاحب مـــزاج يحب أن يضرب الفتاة حتى تفقد وعيها وتصير عجينة لينة بين يديه .. وقد صارحني بهذا، وهو مستعد أن يدفع.. والغاوي ينقط بطاقيته "
وأجريت حسبة صغيرة على أصابعي:
ـــــ"أنـــت لـــم تعملي يومين .. لنقل إن هذا معناه مائتين في اثنـــين.. أربعمائة جنيه كاملة .. سوف نضيف مائة من أجل الألم

الـــذي تشعرين به .. إذن هي خمسمائة جنيهًا لك وحدك .. بما أن عمك لن يعرف شيئًا فلن يأخذ شيئًا .."

ضحكت ضحكة رقيعة متوحشة .. وقالت:

ــ" خمسمائة جنيهًا لي وحدي ؟"

ــ"نعم ... "

ــ"وأنت ؟"

ـــــ"أنا مستفيد طبعًا .. لهذا أدافع عنه .. من واجبي أن أوفر لــــه مـــزاجه مـــا دام يدفـــع .. إنه - بيني وبينك - يسرق سكان يوتوبيا. لهذا معه مال كثير ومعه فلوجستين .. "

ــ"فلوك ؟"

قالتها بنظرة حالمة تسبح في سموات التأمل الكيميائي..

ــ"نعم .. فلوك .. تصوري هذا ؟"

ــ"هيء هيء هيء ..."

تركتها حيث هي وهرعت إلى داخل الكوخ .

كان الفتى جالسًا على الأرض ينظر إلى السقف شارد الذهن، بينما الفتاة تجلس جواره وقد أراحت رأسها على كتفه. قلت له في عصبية:

ــ"اسمع .. هل معك فلوجستين ؟"

ــ"أنت تعرف أنك أخذت كل ما كان معي .."

ــ"هل معك نقود ؟"

قالت الفتاة وهي تعبث في حذائها:

ــ"معي .. كم تريد ؟"

ــ"هاتي خمسمائة جنيه.. بسرعة !"

ناولتنــــي ورقة نقد فئة خمسمائة، فكومتها في يدي وخرجت إلى حيث كانت سمية جالسة هناك القرفصاء تردد بلا توقف كأنه لم يكن هناك أي حوار قبل هذا:

ــــ"هو ضربني .. ضربني .. وأنت كذبت .. لولاك لمزقه السرجاني"

دسست الورقة في يدها وقلت:

ــــ"هي لك وحدك .. قلت لك إن الفتى صاحب مزاج .. فقط لا تقحمــــي الــسرجاني في الموضوع. الفتى قد يطلب منك خدمة أخرى اليوم أو غدًا وسيدفع ما تريدين"

ــ"رقبتي !"

وتحســـست عـــنقها، وبـــدا أن هذه الدعابة السخيفة السطحية راقـــت لهـــا، فـــراحت تضحك بلا انقطاع, ثم أفرغت أنفها على الأرض وابتعدت ....

لا تنكـــر أننـــي أجيد معالجة الأمور الصعبة ... سوف تعود لـــتطلب المزيد لأن الابتزاز لعبة من تعفنت روحه، لكني آمل أن يكون الفتى وفتاته قد عادا لعالمهما قبل ذلك ..

- ٢ -

فـــي أوائل القرن الحادي والعشرين، وفي آخر إحصاء أمكن عملـــه، كـــان هناك ٣٥ مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر، وكـــذا كانت البطالة التي وصلت إلي أعلي معدلاتها العالمية (١٠ ملايـــين عاطـــل).. لاحـــظ أن ٧٨% مـــن مرتكبي الاغتصاب عاطلـــون.. أي أن جـــريمة الاغتصاب هي في الحقيقة اغتصاب للمجـــتمع. دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التي تلعب في أي مجـــتمع دور قـــضبان الجرافيت في المفاعلات الذرية .. إنها تبطئ التفاعل ولولاها لانفجر المفاعل .. مجتمع بلا طبقة وسطى هو مجتمع مؤهل للانفجار ..

وهـــذا هـــو مـــا حدث بالضبط، لكن الانفجار لم يقض على الطـــبقة الثـــرية .. لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطى، وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين ..

فقـــط أدركـــت الطـــبقة الثـــرية أنه لا حياة لها ما لم تتعزل بالكامـــل، وبنفس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقـــيمون الحفـــلات الماجـــنة بيـــنما الطاعون يفتك بمحيط الفقر الخارجـــي. (قـــناع الموت الأحمر).. أين قرأت قصة تحمل هذا العنوان ومتى؟ ومن كان كاتبها ؟.. لا أذكر ..

قــرأت كثيرًا جدًا .. قرأت كل شيء .. حتى أذابت الحروف بعــضها ... وحتى صرت لا انتمي للأغيار ولا انتمي ليوتوبيا .. فـــي كــل موضع أنا غريب مختلف شاذ أحمق غير متكيف غير مندمج...

هل كان في وسع أحدهم منع هذا ؟

لا أعــرف .. أنا لست اقتصاديًا ولا سياسيًا .. دعك من أنني لم أتلق تعليمًا منتظمًا منذ دخلت الجامعة المجانية ..

فقــط كانــت هــناك مؤشرات مخيفة وكان على الجميع أن يتنــبهوا لها.. عندما تشم رائحة الدخان ولا تنذر من حولك فأنت بشكل ما ساهمت في إشعال الحريق ..

عــندما أفحص صحف العشر السنوات الأولى من القرن أشم الكثير جدًا من الدخانٍ .. أوراق الصحف تفوح برائحة الدخان .. فلماذا لم يفعل أحد شيئًا ؟

لأن الجميع تواطأ علينا ..

الجميع تواطأ علي أنا كي أعيش بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب ..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

بلا ثلاجة ..
بلا جهاز هاتف ..
بلا جهاز تلفزيون ..
بلا ربطة عنق ..
بلا أصدقاء ..
بلا حذاء ..
بلا سراويل ..
بلا فلوجستين ..
بلا واق ذكري ..
بلا أقراص للصداع...
بلا مؤشر ليزر ..
وأخيرًا بلا أحلام ..
يـــومًا مـــا سأموت ولسوف أعود لهم في صورة عفريت أو شـــبح ولـــسوف اجعل حياتهم جحيمًا .. لن يكون أحدهم في مأمن مهما توارى بعيدًا عني ..
لكني لن أقتل هذين ...

*   *

الفتى كان جالسًا لا يعمل شيئًا ..
قلت له بلهجة آمرة:
ـــــ"أنت هنا تأكل من طعامي وتنام تحت سقفي، فلابد من أن تجرب أن تجد قوت يومك .."

نظــر لــي فــي تحد . يتمنى ان يمزقني لكنه تحت رحمتي بالكامــل، لهــذا يصمت .. لو كان يملك شيئًا واحدًا محترمًا فهو الذكاء. قال لي:

ــ"معنا بعض المال .. فهل هذا ما تريد ؟"

قلت في اشمئزاز:

ــ"لا أريد شيئًا من مالك .. أريد أن تساعدني.."

كان هناك الكثير من العمل في شبكة مترو الأنفاق، لكني لن أطلعــه علــى شيء منها. لو عاد هذان لعالمهما فلا أريد أن أجد الــسلطات تقــوم بسد شبكة المترو بالكامل بالخرسانة .. سيكون معنى هذا أن نختنق ...

تلــك الــشبكة هي عالمي الخاص الذي أعرف كل شبر منه وأصير ملكًا ...

قلت لــ (صفية) همسًا وأنا أناولها القنينة:

ــ"كما قلت لك .. لا تكثري منه ولا تجربيه"

وغادرت الكوخ مع الفتى ماشين وسط أطنان المخلفات وبقايا المجــاري، وســط الــصبية الــذين يتشاجرون ويقذفون بعضهم بالمخلفات ...

مــشينا نحو ربع ساعة وسط بقايا المدينة هذه، وأخيرًا وصلنا لــساحة المعلم (طه) التي تحيط بها السياج. على الباب يلقاك ذلك البلطجي الذي لا أعرف دوره بالضبط، وهو غالبًا يرهب القادمين لا أكثر. يقدم لكل منا مدية . في الداخل مساحة من الأرض تقرب

مـــن مساحة ميدان صغير، وهناك نحو خمسين من أمثالنا يعملون بلا توقف.

هـــناك كومة في الركن من الدواجن النافقة . كومة ارتفاعها خمـــسة أمتار تقريبًا .. لا رائحة لأنها نفقت اليوم فقط في مزرعة ما خارج القاهرة.

علـــى الكـــومة الثانية تقف مجموعة من النسوة يقمن بإزالة الـــريش .. هـــناك قيزانات ماء ساخن يتصاعد منها البخار. يجب الحذر في هذا الجزء بالذات بسبب الحروق.

ترتفع الكومة الثالثة من جثث الدجاج العارية .. ترتفع في كل لحظة .. لو كان البشر دجاجًا لكان هذا المكان مقبرة جماعية ...

قلت للفتى وأنا أخرج مديتي:

ـــ"تنظف أم تشفّي ؟"

نظر لي في حيرة وقد تقلص وجهه اشمئزازًا فقلت مفسرًا:

ـــ"أي تشق البطن وتخرج الأحشاء أم تقوم بتجريد العظام من اللحم ؟"

ـــ"لن أستطيع أن أقوم بهذا ولا ذاك "

نظرت حولي لأتأكد من أن أحدًا لن يسمعني:

ــــــ"لا أحـــد يعيش هنا من دون عمل .. عمل قذر .. عمل حرام .. عمل غير قانوني .. ليكن ما يكون .. المهم أن تعمل .. لن أصرف عليك مليمًا بعد اللحظة .."

قال في غيظ وقد أوشك على الانفجار:

ـــــ"تتحدث عن الإنفاق علي كأننا ننام في قصر ونستحم بماء الــورد ونأكــل نعامًا .. كم يكلفك هذا الفول الحامض ونومنا في عشة دجاج ؟"

صه !... رفعت إصبعي إلى شفتي منذرًا:

ـــــ"لو سمعوا لهجتك المدللة هذه ومخارج حروفك لسلخوك بدلاً من الدجاج .. انت تفضح نفسك في كل لحظة !"

هــز رأسه في عناد البغال ثم اتجه إلى الكومة المجاورة التي يعمــل عليها أربعة .. كومة (تشفية) الدجاج .. بالمدية ينزع اللحم عــن العظـــام وهو يضع الدجاجة كاملة على حجر أملس .. يلقي باللحم على كومة مجاورة وبالعظام على كومة أخرى ..

خــط تجمــيع لابــد أنه كان سيروق للخواجة (فورد) الذي صــدعونا بالكلام عن عبقريته في ابتكار خطوط تجميع السيارات في القرن الماضي ..

قلت له وأنا امسك بالدجاجة الأولى وأشق بطنها:

ـــــ"هــاك ... عندما ننتهي سوف نخرج من البوابة الخلفية وســوف نأخــذ نــصيبنا .. نحو دجاجة لكل واحد منا .. من أين تحسبنا نحصل على اللحم ؟.. هذا الحفل لا يقام يوميًا .. هناك أيام يكتفون فيها فلا يسمح لنا بالعمل أصلاً"

قال في اشمئزاز:

ـــ"دجاج ميت ؟"

أطلقت صوتًا قبيحًا من حلقي وقلت:

ـــ"هل حقًا يبالي قومك بالذبح الحلال أيها النصاب ؟"

ثم قلت لنفسي إنهم على الأرجح يبالون .. يدققون جدًا في ذبح الدجاج لكنهم لا يدققون بصدد ذبحنا .. لا يسمّون علينا ولا يحسنون قطع الوريد.

راح يؤدي عمله معذبًا مشمئزًا تعسًا كاسف البال حانقًا مغتاظًا ..

لا بأس .. بعض أنواع الانتقام لا تتضمن القتل وبرغم هذا هي ممتعة شهية ..

جرح نفسه ألف مرة ، وصار الدم الذي يغطي يده خليطًا من دم الدجاج ودمه. دعه يجرب .. دعه يتعلم .. دعه يتألم ...

كان هناك فنان عالمي اسمه شارلي شابلن.. أنا أعرفه ولا ادري إن كنت مثلي أم لا . ذلك الفنان صنع شهرته من إظهار بطله الفقير الضعيف ينتصر على الأثرياء وعلى رجال الشرطة. قال ذلك الفنان ذات مرة: يلقى الأثرياء في أفلامي شر مصير .. يتعثرون وينزلقون فوق قشور الموز، لأن أغلب الناس يحبون أن يروا الأغنياء المتغطرسين يفقدون كرامتهم . السبب أن معظم الناس في الحقيقة فقراء ..

تباطأ الفتى أكثر من مرة فقلت محذرًا:

ـ"إنهم يراقبون .. لو رأوك تتكاسل لطردوك شر طردة ولن تأخذ شيئًا .. "

وهكذا ظللنا نعمل نحو الساعة .. لكني لم أكن مستعدًا لقضاء اليوم كله هنا ..

-٣-

عندما ازداد الزحام وكثرت الوجوه، لم أعد أرى الفتى ..
ربما كان هناك جواري لكنه غارق في الدم والعرق فلا يبدو منه شيء ..
هـنا فقـط أمكنني أن أهرع إلى الباب الخلفي للساحة، وكان (خليل) يقف عليها كالعادة .. نظر لي في دهشة وقال:
ــ"مرة أخرى ؟.. لن أحميك للأبد .."
قلـت وأنا أناوله المدية الدامية (لأنه من الممنوع أن تعود بها لدارك):
ــ"بل تفعل .. إن هي إلا نصف ساعة .. "
ــ"فلوك "
ــ"لك هذا .. أنا أفي بوعودي.."
هكـذا أفسح لي الطريق كي أمر. هو يعرف إنني سأعود من الطريق ذاته ولسوف يسمح لي بالدخول والعمل بعض الوقت قبل أن أتقاضى أجري كاملاً. إنه يقف هنا لمنع هذا الشيء بالذات ...
أركض ركضًا هذه المرة لذا بلغت داري خلال ربع ساعة .. لن أحتاج إلا إلى عشر دقائق ثم أعود في ربع ساعة آخر ..
كانت صفية بالداخل بانتظاري..

غـسلت وجهي ويدي بسرعة من آثار دم الدجاج. قد أتحمل القذارة لكني لا أتحمل الدم أبدًا.

فـتاة يوتوبيا فقدت وعيها طبعًا بسبب مزيج دواء السعال مع أبـي صليبة مع الأفيون الذي شربته من يد صفية. لا أحد يتحمل هـذا المـزيج اللعين ما لم يكن قد جربه خمس مرات من قبل. لم تكـن جثة هامدة فأنا لا أرغب في مضاجعة جثة، لكنها كانت في حالة من الاستسلام التام الناعس.

كانت صفية الوفية قد فعلت كما أمرتها .. غسلت وجه الفتاة المتسخ وقدميها القذرتين اللتين صارتا تشبهان أقدام نسائنا..

قلت لها وأنا ألهث بعد ركضي:

ـ"شكرًا يا صفية .. والآن انصرفي .. لن أستغرق أكثر من عشر دقائق"

مسحت بأناملها على شعر الفتاة الناعم وقالت:

ـ"خـذ راحـتك .. إن جلدها أملس كجلد الأطفال .. أنت تستحق الراحة .. شقيان .. تحتاج إلى شعر نظيف وجلد أملس .. خذ راحتك ... فليغسل جمالها أدران روحك "

الغريب أنها كانت متأثرة من أجلي، رطبة العينين، ومسلكها أقـرب إلـى حـنان الأمهات .. بدا لي كأنها ترغب في الانتظار لتـرى مـا سأفعله ولتطمئن على أنني سعيد، لكني لا أسمح بتاتًا بشيء كهذا .. صفية سوف تظل نظيفة .. تعرف لكنها لا تسمع.. تسمع لكنها لا ترى .. ترى لكنها لا تلمس ..

غادرت (صفية) المكان فانفردت وحدي بفتاة يوتوبيا ..

عاجزة .. غائبة عن الوعي .. لا تقدر على عمل شيء ..

إنه النصر !..

هذا هو النصر الوحيد الذي أستطيع تحقيقه .. قهر هذه الفتاة ليس قهر أنثى بل هو قهر طبقة بأكملها. قهر ظروف ...

سوف ترى على يدي ما لم تره من قبل. أليس فتيان يوتوبيا فتيات لهنِ شوارب ؟.. ألسنا نحن الفحول الذين ترتجف نساؤهم خوفًا منا واشتهاء لنا ؟.. ألا تتمنى الواحدة منهن بين ذراعي زوجها أو عشيقها أن يغتصبها أحدنا ؟.. ألسنا نحن كابوس رجال يوتوبيا وهمهم المقيم ؟.. أليست الرجولة قمحًا ينضج في شمس المعاناة اليومية ؟

الفتى ملطخ بالدماء في ساحة المعلم طه وسط الدجاج، وأنثاه هنا تحت رحمتي ..

كنت أرتجف من هول الفكرة. توارت (عزة) .. (عواطف).. (نجاة).. توارى حلم ما بعد الجنس ..

انتقامي سوف يكون مريعًا .. انتقامي سيكون جديرًا بأن يكون انتقامًا ..

سوف ......

سوف ...

ماذا يحدث لي ؟

كلما نظرت لوجهها لم أر إلا وجه صفية الأسمر. تلاشت فتاة يوتوبيا المدللة فلم أعد أرى إلا وجه صفية القسيم المفعم بالبؤس برغم هذا ..

لقد انكمشت رغبتي تمامًا، وصار جسدي قطعة من الثلج.

فقــط رحــت أضـــرب خديها في غلظة وهي تئن ولا تفتح عينيها. أهزها من كتفيها في عنف .. أجذب خصلة شعر هنا وهنا ثم لا شيء .. هذا كل ما لدي ...

لا أستطيع ولا أرغب ....

مــاذا دهــاك ؟... هــل سلطة يوتوبيا عليك مطلقة إلى هذا الحــد؟.. هــل صـــارت يوتوبيا تسيطر على هرموناتك وغدتك النخامية وغدتك الكظرية ونسيجك الكهفي وجهازك السبمثاوي؟... هل إلى هذا الحد تغلغلت فيك ؟

أهي سيطرة يوتوبيا، أم هي سلطة ضمير كاسحة تجعلك ترى كل فتاة هشة معدومة الحيلة كأنها صفية أخرى ؟

لن تعرف .. لن تعرف أبدًا ..

فقــط أنــت موقن من شيء واحد: فلتنم هذه الفتاة في سلام، ولتعد أنت إلى المذبح لتواصل انتزاع أحشاء الدجاج...

عندما عدت إلى ساحة المعلم طه لم أبحث عن الفتى ..

فلـيذهب للجحيم .. رحت أواصل عملي المرهق في تنظيف أحــشاء الــدجاج، وبعــد ساعات تلاشت الكومة الأولى والثانية والثالــثة والــرابعة ولم تعد هناك سوى بضعة أكوام يتم نقلها إلى الأسواق ..

بمجرد أن تنتهي كومتك تتجه للباب الخلفي للساحة حيث يقف (خلــيل). يــناول كــل من يخرج نصيبه من الدجاج .. مجموعة أشلاء أعتقد أنها تكفي لعمل دجاجة كاملة.

مشيت بعض خطوات فوجدت الفتى يقف ينتظرني وفي يده نصيبه.

كان غارقًا في الدم والعرق.. بعض الدم كان دمه هو .. ناولني ما في يده بطريقة تقول (ها هو ذا ما أردته .. فخذه واخرس)..

قلت له محاولاً أن يخرج صوتي مزاحًا:

ـ"اليوم تأكل من عمل يدك للمرة الأولى"

قال من بين أسنانه:

ـ"أولاً كف عن الدروس الأخلاقية فقد سمعت منها ما يكفيني.. ثانيًا أنا لن أذوق هذا الشيء .. لقد عافت نفسي الدجاج للأبد"

وهكذا عدنا صامتين إلى بيتي ..

لن يعرف ما حدث، لأن الفتاة ستكون (مسطولة) ولسوف تعتقد أن أي شيء رأته أو شعرت به أضغاث أحلام..

لا أريده أن يعرف .. ليس لأنني أخشاه .. بل أخشى أن يعرف أنني عجزت عن إيذائه عندما كان هذا في وسعي ..

يبدو إنني عاجز عن قتلهما كذلك ..

بونابرت وقف يومًا أمام الجنود الذين جاءوا للقبض عليه وفتح صدره وقال: أنا هو إمبراطوركم فاقتلوني !.. لكن الجند لم يفعلوا .. هيبة الإمبراطور جعلتهم يجثون على ركبهم أمامه وهم يبكون .

لكن الفتى ليس بونابرت .. تبًا !... إنه مجرد حيوان شهواني من يوتوبيا لا يملك أي قدر من الهيبة .. المشكلة أن يكون قد خلق حاجزًا نفسيًا من العبودية داخلي .. المشكلة أن أقتنع أنا نفسي بأنه أفضل وأروع وأكمل وربما أتقى..

أنا عاجز عن قتلهما ..

السؤال الوحيد هو : هل هذا لأن يوتوبيا أقوى مني، أم لأنني أقوى مني ؟

– ٤ –

احنا شعبين ..شعبين ..شعبين
شوف الأول فين والتانى فين؟
وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت
انتم بعتوا الأرض بفاسها.. بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر..
والريحه سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

السرجاني هو أول من فاتحني في الأمر.
أنا لا أحب السرجاني فهو من كلفني قرنيتي. صحيح أن الحياة استمرت بعد ذلك لأن الخطوة التالية هي أن يفتك أحدنا

بالآخـــر.. وأنا لن اقدر على قتله .. إذن الخطوة التالية هي موتي أنا .. لهذا توقفت الأمور عند هذا الحد ..

صحيح .. كل هذا صحيح لكنك لا تستطيع أن تحب من أتلف قـــرنيتك مهما حاولت. هو كذلك لا يحبني لأن (عزة) كانت تميل لي.

الـــسرجاني هـــو من جاء لي حيث كنت جالسًا خارج الدار أدخن البانجو جالسًا القرفصاء أفكر.

غرس السنجة التي يحملها في الطين الجاف، وجلس جواري وقال وهو يتناول اللفافة من يدي بلا اكتراث:

ــ"صباح الطعامة يا أبو جابر"

ونفث سحابة كثيفة من الدخان، وراح يتأمل الرماد المعلق في شكل قمع طويل. وقال كأنه رجل مهموم بعظائم الأمور:

ـــــ"هـــذه الفـــتاة التي تعيش في بيتك .. لا أتكلم عن صفية طبعًا.. صفية على رأسنا من فوق .."

ــ"مالها ؟"

قلتها في اشمئزاز وأنا أعرف ما سيقول حرفيًا ..

قال ،وهو يعيد لي اللفافة محاذرًا أن يسقط الرماد:

ــ"تلزمك ؟"

ــ"ولو لم تكن ؟"

ــ"اليد البطالة نجسة "

ــ"تكلم بوضوح يا سرجاني"

الموضـــوع مهم فلا مجال لهذه اللغة التلغرافية التي نستعملها منذ عشر سنوات .. لغة من رأى كل شيء ولم يعد يدهشه شـيء.. الآن مجال الشرح والتطويل ..

قال لي بهدوء:

ــ"يمكن لهذه الفتاة أن تجلب لك الكثير من المال بدلاً من أن تكـــون عبئًا عليك. الصنف شحيح وقليل والموجود رديء .. أنت ترى وجه سمية البشع الذي يذكرك بالأبالسة .. هذه الفتاة ستكون مكسبًا لنا معًا.."

قلت في ضيق:

ــ"أنت أخذت عزة .. ألا تكفيك ؟"

ــــ"هذه مهنة شاقة .. مهنة قذرة تبلي ملامح الأنثى وجسدها تمامًا .. لابد من التجديد"

ابتـــسمت فـــي سري .. لو أردت انتقامًا فأي انتقام أبشع من هـــذا؟.. فتاة يوتوبيا تجد نفسها في هذا الوسط بين هؤلاء. لكني لا أريـــد ذلك .. سمه انتصارًا على نفسي أو انتصار يوتوبيا علي .. فقط أعرف أنني سأحميهما ما دمت حيًا وما داما بيننا ..

قلت وأنا أناوله لفافة التبغ:

ــ"هي لا تحب هذا الكار .. هي حرة يا أخي.."

ــ"كما تحب .."

ثم فكر قليلاً وأضاف التهديد الذي عرفت أنه آت لا محالة:

ــــ"بيني وبينك .. نحن لا نعرف من هذان حقًا .. أنت قلت كلامًـــا وألقـــيت لنا ببعض الفلوك لنتشاجر عليه كالكلاب. سمية

تحكي قصة مختلفة .. هذان يبدو عليهما الثراء ولتقطع ذراعي إن كانا عاشا يومًا واحدًا من الجوع قبل قدومهما .. من أين جاءا بكل هذا الفلوك ؟... أنت تعرف كما أعرف أن هذين من يوتوبيا .. لا تقــل لي إنهما كانا يعملان هناك بل هما من أصحاب الدار .. أيام كانــت هــناك كلاب كان عندي كلب يحرسني ويأكل من طعامي ويــنام تحت سقف داري، لكن دعني أؤكد لك أنه لم يبد مثلي في أيــة لحظــة !.. عاش كلبًا ومات كلبًا .. الغبي ابن الغبي هو من يخلــط بــين الكلــب وصاحبه. هذان ليسا كلبين .. هذان يملكان الكلاب .. فلماذا جاءا هنا ؟.. يمكننا أن نتخيل !.. "

قلت دون أن أنظر له:

ــ"قصّرْ !"

ــــ"سأقــصر .. أنت تعمل مع (عبد الظاهر).. لو عرف أن اثنــين من يوتوبيا يعيشان تحت سقف بيتك فماذا سيفعل ؟.. وماذا عــن (بيومي) ورجاله ؟.. الكل سوف يرقص طربًا وسوف تأتي المنطقة كلها إلى دارك لأخذ حقوقها .. صدقني يا صاحبي لا أحد يــريد لك الأذى، ولا أحد يقبل أن تمس شعرة من صفية .. صفية عزيزة علي كأنها .. كأنها سمية ابنة المرحوم أخي .."

قلت في غيظ ساخر:

ــ"نعم .. أنت تحرس سمية وترعاها جيدًا فعلاً .. كلنا يعرف هذا"

نظر لي ولم يتكلم، وانصرف دون أن يعيد لي اللفافة ..

* * *

لم أكن أحمل هم (بيومي).. كنت احمل هم (عبد الظاهر)..
بيومـــي وشلته يمثلون الأعداء، وهم خطر في كل وقت وكل زمن، بينما (عبد الظاهر) وشلته هم مصدر حمايتي ونفوذي، ولو انقلبوا علي فأنا ضائع ..

عبد الظاهر كان هناك في أنفاق المترو يناقش خطة البايرول للمـــرة الألـــف .. منذ أعوام وهو لا يكف عن مناقشة هذه الفكرة وأنا أقول له إنه مجنون ..

ــــ"هؤلاء الناس قد يمزحون في كل شيء لكن لا مزاح في البايرول"

ــــ"هــذا مــا يجعل الخطة ممتازة، وتضعنا في موقف قوي حقيقي"

قلت له ساخرًا:

ــــ"إن المخدرات أطارت صوابك يا بن الـــ (.....) .. تعتقد أنـــك تكـــافح الإنجليـــز في واحد من تلك الأفلام القديمة الأبيض والأسود .. دعك من هذا الهراء وفكر في كيفية العثور على كلب جديد"

عـــبد الظاهـــر كان بلطجيًا لكنه (جدع) حار الدماء .. ليس مجرد ضبع تثيره رائحة الدم مثل بيومي .. لهذا فضلت أن أكون معه من البداية ..

كـــان بعـــضنا يجلـــس فـــوق عربة مترو يلعب (البرغوتة) والـــبعض جالس في ركن من المحطة يشم الكلة .. إنها الظهيرة لكن أنفاق المترو ليل دائم أبدي .. ربما لهذا تشعرنا بالألفة.

جمـــيل أن تعـــرف أن كـــل هؤلاء معك .. يمكنهم أن يهبوا لنـــصرتك لـــو تعرضـــت للخطر .. لهذا أعرف أن صفية سوف تتزوج واحدًا من هؤلاء. لا سبيل لها للحياة غير هذا ....

مخيف بما يفوق الوصف أن ينقلبوا عليك ..

قال لي (عبد الظاهر) وهو يدقق في وجهي بعينيه الواسعتين العسليتين اللتين توحيان بالجنون:

ـــ"هناك كلام كثير عنك يا صاحبي في الآونة الأخيرة .. "

رفعـــت وجهي في توتر ونظرت لوجهه المترقرق في ضوء المشاعل..

ماذا ؟..

قال في ثبات:

ـــ"أولاً أنت فررت من مشاجرتنا الأخيرة مع بيومي .."

ــــــ"أنـــت تعـــرف أنني ضعيف ولا قبل لي بالانتصار على هـــؤلاء .. كنـــتم تنهـــزمون وكـــان بوسعي أن أبقى، لكنك كنت سترثيني الآن باعتباري شهيد الجدعنة .. هل كنت تفضل هذا ؟.. علـــى الأقـــل أنـــا هنا حي أرزق وأتلقى اللوم منك.. لا تنس أن سليمان مات فلم تستطيعوا الدفاع عنه .. "

لـــم تكن هي أول مرة أفر فيها ولن تكون الأخيرة فلماذا يهتم بالأمر ؟

قال من جديد:

ــــــ"وهذان اللذان في دارك ؟.. الكلام كثير عنهما .. يقولون إنهما من يوتوبيا وإنك تنكر هذا في إصرار .. ما الذي تدبره ؟"

لا توجد أسرار في هذه المنطقة ... هذا واضح ..
أخشى ما أخشاه يحدث الآن ..
فتحت كفي وأصابعي ورحت أقسم:
ــــ"والله العظيم .. والله العظيم .. أنا لا أعرف من أين جاء هذان .. فقط كانوا سيفتكون بهما وأنا لم ...."
قال مقاطعًا:
ــ"كف عن القسم .. كل الناس تقسم طيلة الوقت .. اسمع .. نحن نريدهما .. سوف نعرف أصلهم' وفصلهما .. لو اتضح أنهما مــن يوتوبيا فلسوف نلعب بهما لعبًا ممتازًا .. لن يجدهما الذباب الأزرق، ولــربما ساومنا عليهما .. لو كانا مسكينين مثلنا لوجدنا لهما عملاً وحياة .."
رآني مترددًا فقال في حزم:
ــ"جابر .. فكر جيدًا .. لا تخسر كل شيء من أجل كلبين .. لا أعرف أهميتهما لك لكنهما بالتأكيد ليسا أكثر قيمة من صفية !"
ثــم نهض وبصوته الجهوري صاح في الرجال المتفرقين في المحطة:
ــ"هلموا !.. أريد هذه المشاعل في مكان واحد .. أحد رجال بيومــي هنا في الأنفاق ومعه بانجو .. من منكم يأتيني به ويظفر بنصف ما معه ؟"
عــندما غــادرت المحطــة كنت أعرف يقينًا أنني يجب أن أتصرف الليلة ..

لقــد اشتمت أنوف كثيرة الرائحة، وتجمع الذباب حول العسل لو كان ما آويه في داري عسلاً.

لو أردت لهما الحياة فليفرا الليلة ..

فليفرا فلا يقع علي لوم سوى لوم الغفلة والغباء ..

الليلة قبل أن يحدث شيء آخر ..

* * *

قلت لهما إنهما سيرحلان الليلة، وخرجت أدبر أمري .. هناك الكثيــر من الترتيبات يجب أن تتم . عدت لهم بعد ساعتين وكانا مـستعدين كمـا نصحتهما. أحكما مسح وجهيهما بالقذارة وثيابهما صـارت أقذر .. الغريب أن صفية أختي بدت نظيفة لامعة براقة وإن لم تبد مسرورة جدًا، حتى خطر لي أنها ربما تميل للفتى ..

لا .. ربما هي تميل للفتاة باعتبارهما من السن ذاتها تقريبًا.. سوف تفقد الصديقة الوحيدة التي ظفرت بها في حياتها ..

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعرف أنني سأموت الليلة فلا تضايقني من فضلك ..

دعني أمارس آخر لحظات لي في الحياة ..

دعني أجرب أن احلم ...

الجزء الخامس

الصياد

- ١ -

سوف نرحل هذه الليلة ..

(جابــر) اخبرنا بهذا .. قال إن الشكوك تتكاثر والذباب يحوم وعلامات الاستفهام تتكاثف والأقاويل تزداد و.. و ..... إلى آخر هذا الهراء ..

وسوف نرحل هذه الليلة ..

نرحل ؟

ربما إلى أعلى .. ربما إلى أسفل .. ربما إلى يوتوبيا ..

لــو لــم نتحــرك في اتجاه عمودي فهناك أمل في أن نظل أحياء..

سوف نرحل هذه الليلة ..

*   *   *

عند ساعات المساء الأولى قال لنا إن علينا أن نعد كل شيء. ســوف يتغيب ساعتين ثم يعود ليجدنا متأهبين. نعد كل شيء ؟.. هل يوجد معنا شيء نعده ؟. بالطبع لا.

لكن (صفية) قالت لنا إن الإعداد هنا يعني المزيد من القذارة .. أحضرت بعض الشحم الأسود وراحت بلمسات أستاذية تضيف القذارة على وجوهنا . أعطتنا ثيابًا أسوأ مما كان علينا ..

قلت لها وهي تمسح وجهي:
ــ"ماذا ستفعلين بصدد هذا الدرن ؟"
قالت كأن الأمر لا يعنيها:
ــــ"سوف أتعاطى منقوع الأعشاب الذي تعده أم (عبير)، وأدفئ صدري، وفي النهاية سأموت وسط بركة دم .. هذا هو كل شيء .. لكن (جابر) لا يصدق هذا .. يعتقد أنني سأشفى"
ــ"هناك أدوية للدرن ..."
ــ"نعم .. وكلها عندكم .. ماذا تتوقع أن أفعل ؟"
أردت ان أكذب .. أقول لها إنني سأعود وسأجلب لها بعض الدواء من أبي .. أبي الذي لا يمكن تعاطي قرص أسبيرين في أي موضع من مصر إلا عن طريقه، لكني وجدت أن هذه أسخف كذبة ممكنة. يمكنني أن اترك لها تذكارًا لكنه لن يكون علبة دواء.
لما أدارت صفية ظهرها لنا قلت لجرمينال همسًا:
ــ"اسمعي .. أريد أن تغادري الكوخ عشر دقائق.."
نظرت لي في حيرة ثم تقلص وجهها وهتفت مشمئزة:
ــ"هل تمزح ؟... هل هذا هو الوقت المناسب ؟.. "
ــــ"لابد لي من تذكار . قلت لك إن لها مذاقًا مختلفًا مثيرًا .. هذه آخر فرصة في حياتي لتجربة هذا المذاق .. لو رحلنا لانتهى الأمر .. "
كان وجهها الآن في أقبح صورة يجمع بين التوحش والاشمئزاز والشراسة. أبشع نمر غاضب رأيته في حياتي :
ــ"نحن تحت رحمتهم يا حلوف !... "

ـ"أعرف كيف أجعلها تصمت .. والآن أخرجي !"

نظــرت لـــي في كراهية عمياء. لم أعرف من قبل أنها تغار علـــي لهــذا الحد. أعتقد أن الأمر يتعلق بكبرياء الأنثى أكثر منه بالغيـــرة. في يوتوبيا تعرف أنني مع فتاة أخرى كل يومين تقريبًا فـــلا تتكلم، لكن الأمر بدا لها هنا مهينًا خاصة أنني لم ألمسها منذ جئنا.

انفردت بـــ (صفية) على ضوء المشعل، ومنذ اللحظة الأولى عرفتُ ما أريد و....

لا ..

هذا ليس حقيقيًا !

إنها تقاوم بشراسة وعنف .. تقاوم كثور بري هائج.. تخمش .. تــضرب .. تركل .. تبصق .. تصرخ .. تولول .. تتشنج .. تبكـــي .. تسب .. تلعن .. تعض ... كنت احسب الأمر أسهل من هـــذا بكثيـــر. المفترض أنها ستذوب لفكرة أنني اشتهيتها. رجال الأغـــيار ليـــسوا رجـــالاً حقًا . لقد قضى الجوع والطعام الفاسد والجوســـيبول علـــى رجولتهم، ونحن نظفر بنسائهم بسهولة طيلة الـــوقت فـــي يوتوبـــيا، بيـــنما يكتفـــي رِجالهم باصطناع الفحولة والجبـــروت .. أليـــست الـــرجولة حيوانًا يحتاج إلى تغذية جيدة ورياضة وشمس ساطعة ؟.. إذن هم لا شيء .. لا شيء ....

لكنها قاومت بعنف وبسالة، وكنت أنا معتادًا على العنف على كـــل حال لذا قيدتها تقييدًا بشرائط مزقتها من قميصي القديم الذي

نزعته. كممت فمها فخرست وأراحني هذا من فيض بكتريا الدرن المنبعث من أنفاسها على كل حال ..

اغتصاب مريضة سل !.. سوف تدخل هذه الواقعة التاريخ. ربما أحكيها مرارًا للأصدقاء في جلسات الفلوجستين لو عدت سالمًا.

مددت يدي بقطعة قماش إلى سطل من الماء ملأته هي، ورحت أبلل قطعة القماش وأنظف وجهها وقدميها لتبدو بشرية نوعًا ... بالواقع لم أمس جزءًا منها! قبل أن أنظفه بعناية ...

رحت أردد في مزيج من نشوة وكراهية وأنا انتهي:

ـ"يا لقذارتك !... يا لقذارتك !.. هه هه !"

(صراخ مكتوم .. شهيق...)

ـ"ليس فقركم ذنبنا .. هه هه ... ألا تفهمين بعد أنكم تدفعون ثمن حماقتكم وغبائكم وخنوعكم ؟.. هه هه ... "

(أنين .. بكاء ..)

– "عندما كان آباؤنا يقتنصون الفرص كان آباؤكم يقفون أمام طوابير الرواتب في المصالح الحكومية . ثم لم تعد هناك مصالح حكومية .. لم تعد هناك رواتب .. هه هه ... "

(شهيق .. حشرجة ..)

ـ" أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرًا لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع.. هه هه ....ما ذنبنا نحن ؟"

(دموع .. نهنهة ..)

ـ"عندما هب الجميع ثائرين في كل قطر في الأرض، هززتم أنتم رءوسكم وتذرعتم بالإيمان والرضا بما قسم لكم .. هه هه ... تدينكم زائف تبررون به ضعفكم.. هه هه ... "

(عواء .. غرغرة ..)

ـــ"أنتم اقل منا في كل شيء .. هذه سنة الحياة .. يجب أن تقبلوها .. لم يعد أحد قادرًا على تغيير أي شيء.. شيء .. شيء .... شيء .. شيء .. شيء .. هه .. هه .. شيء .. هه .. هه.. شيْء .. !"

(توسل مكتوم .. هستيريا ...)

كنت قد انتهيت .. صار جسدي كبالون خاو من الهواء، وفي هذه اللحظة بالذات سمعت جرمينال تقول من وراء ظهري:

ـــ"ألم تنته بعد أيها الخنزير ؟.. أخوها سيعود في أية لحظة.."

ارتميت منهكًا على الأرض جوار الفتاة المنهارة، وقلت لاهثًا:

ـ"صحيح .. أخوها .."

ومن جيبي أخرجت المدية .. المدية التي سرقتها من المذبح عندما كنا ننظف الدجاج . وضعتها تحت عنقها وقلت لعينيها الجاحظتين:

ـــ"اسمعي .. ولا حرف عما حدث هنا .. لو أن حرفًا قيل فلسوف ....."

هتفت جرمينال:

ـ"أنت لن تقتلها .. هي مجرد طفلة !"

ــــ"ومــن تحدث عن قتلها ؟.. سأقتل (جابر) يا صغيرة .. سترين المدية تمزق أحشاءه قبل أن يفهم معنى كلامك .. ستعيشين وحــيدة للأبــد ولسوف تصير حياتك كلها تكرارًا مملاً لما حدث الآن، لأن (جابــر) لــن يحضر لك الطعام بعد اليوم.. (جابر) لن يحميك .. "

ظلت صامتة فعدت أكرر السؤال:

ـ"هل فهمت ؟"

وبهــدوء أزحــت اللــثام عن فمها .. وفككت قيودها. أمرت جرمينال بأن تعنى بها قدر الإمكان لتبدو بشرية ..

قالت جرمينال وهي تبصق على الأرض:

ـ"هل استرحت يا ابن الــ (...) ؟"

قلت في برود:

ــــ"استمري .. أنت تكتسبين لغتهم وعاداتهم يومًا بعد يوم . هذا مفيد لنا كما تعرفين"

-٢-

إلا الحزن والصمت ..
يمكنك أن تغير معالم جريمتك لكن الحزن والصمت يبقيان ..
هكـذا ظل (جابر) ينظر في فضول لأخته وهو يعد حاجيات الفـــرار. لكن الفتاة لم تتكلم. إنها باسلة فعلاً.. دعك من أنها كانت صـــادقة في مقاومتها لي وأنا لم أر قط فتاة صادقة في مقاومتها. هـــناك دومًا لمسة تصنع وادعاء. هذه الفتاة كانت تكرهني فعلاً.. تكره أحشائي كما يقول الأمريكان ..
قال (جابر) بعد قليل وعلى وجهه علامات الجدية :
ـــــ"أنا لا أثق بقسمكم لأنكم تتعاملون معنا كأننا تحت مستوى الآدمـــية .. وتكذبـــون علينا بالسهولة التي يكذب بها المرء على خروف، لكني سأجرب لمرة واحدة .. ما ستريانه سيبقى سرًا .."
ثم أردف وهو ينهض :
ــ"لقد اضطررت لإجراء صفقات كثيرة .. كلفني هذا مالاً.."
قلت في ضيق:
ــ"إن أبي ...."
رفع يده في كبرياء وقال:
ــ"لا أريد سماع كلمة عن أبيك وحياة أبيك ..والآن هيا بنا ."

وتناول أداة غريبة عبارة عن قضيبي خشب متعامدين كأنهما صليب ..

وسط الظلام مشينا في الحارات والأزقة المتسخة التي لا ينيرها إلا مشعل هنا أو هناك..

وسط باعة السمك الفاسد ..

وسط باعة المخدرات الرخيصة ..

وسط باعة الأجساد ..

وسط الشباب الذين يمزقون بعضهم في مشاجرات لا تنتهي .

وسط الأفاقين والنصابين وباعة الأعشاب ..

وسط برك الماء الآسن وبقع الكيروسين ..

وسط الترنشات التي لم تكسح منذ شهرين..

وسط جثث الكلاب التي تم تجريدها من اللحم ..

وسط باعة الأجهزة المسروقة ..

وسط الصبية الجالسين يلعبون القمار على قفص دجاج مقلوب ..

وسط كل هذا نبتعد ..

ثلاثة أشباح لكنها لا تجلب الرعب بل تشعر به..

جرمينال لا تكف عن هرش رأسها وصدرها كأن هذه هي علامة النجاة .. أنا منكم .. أقسم بالله أنني منكم !

* * *

هناك على جدار مهدم جلسنا ..

قال لي جابر وهو يشعل لفافة تبغ:

ـــــ"أعتقد أن هناك عيونًا كثيرة تراقبنا .. لذا سيتم الأمر كما يلـــي .. ســـوف تـــدور حول الجدار كأنك تريد قضاء حاجتك ثم تركض عبر الخرابة منحنيًا .. هل تعرف عدو الظليم ؟.. لا ؟ .. هـــذه فرصة كي تعرفه .. عندما تبلغ الناحية الأخرى من الخرابة انتظرنا .. نحن سنلحق بك بذات الطريقة .. "

كـــنا جالـــسين في الظلام كما قلت لك، فرأيت (جابر) ينزع سترتي المتسخة عن كتفي فيضعها على قطعتي الخشب فتبدو كأن هـــناك من يلبسها على كتفيه. فهمت .. مع الظلام والمسافة يشعر مـــن يراقبنا أننا ما زلنا ثلاثة. هكذا وثبت لأدور حول الجدار في اللحظة التي رفع فيها رايته الغريبة مرفرفة.

رحت أركض عبر الخرائب وقدمي تلتوي من تحتي وأنفاسي متقطعة . على الأقل لن تطاردني الكلاب المسعورة لأنه لا وجود لهـــا.. أركض في الظلام لا أعرف إن كان ما أدوس فيه صخورًا أم فضلات بشرية أم جثثًا متعفنة أم مجرد غبار ..

وصلت إلى النهاية فوجدت جدارًا آخر مهدمًا .. وقفت جواره ألهث ...

بعـــد قلـــيل ســـمعت صوت لهاث آخر .. ورأيت جرمينال تركض وهي منحنية لتلحق بي ..

وقفت جواري وهي عاجزة عن التنفس ..

ســـرعان ما ظهر (جابر) وهو يركض بدوره. لقد ترك سترة واحـــدة معلقة هناك .. وهي تعني أن اثنين يقضيان حاجتهما بينما الثالث ينتظرهما ..

هــو ذا يتجه إلى وكر قذر نهبط إليه منحدرين على درجات محطمــة .. وفــي نهايــة الساحة ترى حافلات عتيقة يسيل منها الزيت والكيروسين وتهدر بلا انقطاع ..

ـــ"أيوه الساحل الشمالي !.. أيوه يوتوبيا !!"

هذه الكلمات جعلت قلبي ينحشر في حلقي ..

الـــوطن .. برغم كل شيء هو الوطن ... أنا الذي لا انتمي لمكان ولا أشخاص ولا مبدأ ..

ســقط قلبي في بطني .. معنى هذا أن هناك سبيلاً للعودة .. لكـــن مـــاذا عـــن الحراس ؟.. ماذا عن المارينز والوصول إلى يوتوبيا ؟.. رباه !..

من العسير أن تقترب من يوتوبيا من دون تصريح .. سوف يفرغ فيك المارينز طلقات بنادقهم ..

لن يصغوا لك وأنت تحكي قصصًا معقدة عن تجربة الرجولة وكل هذا الهراء ..

لو لم تتم مكالمة مع أبي فلا جدوى ...

* * *

الـــرحلة تنطلق وأنا أرقب (جابر) الجالس صامتًا في الظلام أمامـــي .. كـــل شـــيء فـــي الحافلة يئن ويصر ويهتز.. رائحة الكيروســـين تـــزكم الأنفـــاس. أختلس النظر إلى جرمينال ثم كل الوجـــوه التعسة للعمال الذاهبين للعمل في مستعمرات الساحل .. الفـــرانين وجامعي القمامة وصائدي الفئران ... كلهم سيء التغذية ممتقع الوجه .. كلهم مهزوم .. كلهم واهن .. كلهم ..

سـوف يـبدأ عملهـم فـي ورديات الليل .. سيعملون عشر ساعات متواصلة ثـم يعـودون . معنى هذا انهم يقضون بين ظهرانيهم أقل من سبع ساعات ..

من الخير لهم أن يموتوا هنا والآن.

ربـاه !.. فلوجستين !.. كم أتحرق شوقًا له !.. لو سارت الأمور كما أتمنى فلسوف أتذوقه من جديد خلال ثلاث ساعات أو أقل ..

أرقـب معـالم الطريق ونحن نتجه إلى الاسكندرية .. حتى بعلبة الكبريت المعدنية هذه نحن نتحرك للأمام ...

معـالم الـساحل الشمالي .. وجه (جابر) الصلب يرتسم على معـالم الطريق المظلم .. فقط تلتمع عليه أضواء الطريق من حين لآخر ..

ما هي خطته ؟ ..

الاحتمال الأخطر انه يرتب لنا مقلبًا ما .. ربما يريد التخلص منا بعيدًا عن أرضه .. جثتان في الصحراء ولا يعرف أحد من فعلها .. للأسف ليس لدي حل إلا أن أثق به ثقة مطلقة ..

لماذا ينهض هنا ؟... لماذا يتبادل الهمسات مع السائق ؟

إنه يعود ليجلس جوارنا وإن بدا أنه ينتظر شيئًا ..

فجأة توقفت الحافلة وسمعته يقول لنا في الظلام:

ـــ"هيا بنا !!"

ماذا تقصد ؟

نحن في قلب اللامكان بالمعنى الحرفي للكلمة ..

-٣-

الحافلة تنطلق مبتعدة بمن فيها.. بقعة ضوء تشحب في الظلام .. سفينة أمل تمخر مبتعدة لتتركك في جزيرة قاحلة تموت عليها ...

ظلام الليل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار .. أعرف أنني أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكنه يملك عنصر المبادأة والمفاجأة ويعرف الأرض ...

لو تسرعت بالفتك به فلربما اتضح أنه بريء وأكون قد أضعت فرصتنا ..

(جابر) يمشي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

الأسوأ كان هناك بالفعل وهو رجلان تبدو عليهما الشراسة والقوة ومسلحان .. تبادلت وجرمينال النظرات .. هل حان الوقت أخيرًا ؟

لكن ثلاثة الرجال كانوا راكعين على ركبهم ينبشون الرمال بأظفارهم ومدي صغيرة على ضوء كشاف واهن .. أحدهم نظر

لـــنا في شراسة كما يفعل كلب تفاجئه أثناء النبش عن عظمة، ثم عاود العمل..

قال أحد الرجلين دون أن ينظر لنا:

ـــ"هل أنت ضامن لهما يا (جابر) ؟"

قال (جابر) وهو يواصل الحفر :

ــــ"مثل نفسي .."

ثـــم مد يده ودس أشياء في يد الرجل .. أعتقد أنها مخدرات فالمـــال لا يـــبدو كـــذا .. فـــتحت فمي لأتكلم فصرخ (جابر) في وجهي:

ـــــ"اخـــرس يا (حنفي) !!.. عندما تدخل حاول أن تسرق لنا بعض الفلوجستين .. إن (حبارة) و(شيحة) لم يجرباه قط .."

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عـــنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد أزاحهـــا المدعـــو (حـــبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ـــ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

أنا (حنفي) وهي (نفيسة) ؟؟ .. لا أحب الاسمين لكن لا أعتقد أن هذا هو الوقت الملائم. على كل حال اندسسنا في الفتحة ورحنا نهـــبط الـــدرجات الخـــشبية في الظلام غير عالمين إلام تقودنا.. وسمعت (جابر) يقول للرجلين:

ـــ"سأوصلهما لأقرب نقطة ثم أعود .. انتظراني "

ثم سمعت جسده ورأيت ضوءه ينزل وراءنا .. فما أن صار بيننا في قاع البئر حتى صحت:

ـــ"ماذا يحدث هنا ؟"

قال وهو يتقدمنا عبر ممر مظلم:

ـــ"أنفاق !... منذ البداية هناك أنفاق سرية يمكننا بها الدخول إلى (يوتوبيا) لسرقة ما نريد .. من السهل أن تغادر (يوتوبيا) لكن من المستحيل أن تدخلها من دون بطاقة (عبودية).. قام هؤلاء البلطجية بحفر هذه الأنفاق وهم يؤجرونها لمن يدفع .. الثمن يكون مالاً أو مخدرات .. طبعًا من الواضح أنني أقنعت هذين أنكما فقيران مثلنا وأنكما تريدان تجربة السرقة .. لو قلت إنكما من أهل (يوتوبيا) لمزقاكما في اللحظة ذاتها.. "

هتفت جرمينال:

ـــ"أي أن هذا النفق يقود إلى ..."

ـــ"إلى قلب (يوتوبيا).. جوار ذلك (المول) الكبير الذي نسيت اسمه .."

ـــ"إليت مول"

ـــ"نعم .. حيث ينتشر أمثالكم كالضباع بحثًا عن فريسة .. سعار الاستهلاك واللعاب يتساقط على الأرضية الزلقة البراقة. بينما العبيد والجواري من عندنا يقفون بانتظار تلبية طلباتكم. عبد يجلب لكم العصير.. جارية تساعدكم في اختيار ثوب مناسب. خصي يقف على باب المرقص. كل شيء متاح وللبيع حتى العبيد أنفسهم"

قلت في برود:
ـ"تشبيهاتك شاعرية"

أردف قائلاً:
ـــ" سوف تخرجان هناك وأعتقد أنكما لن تجدا صعوبة في الوصول لداريكما .."
قلت في انفعال:
ـ"لماذا تفعل هذا كله ؟"
فقد بدا لي مبالغاً بحق في هذا الذي يفعله...
ربمـــا يتـــضمن المعروف جزءًا سلبيًا هو ألا يبلغ عنا ..هذا ســهل .. لكــنه تجـــاوز هـــذا الحد إلى الجزء الإيجابي .. أنفاق وبلطجية ودفع مال وتسلل ليلي .. الخ ...
لا أحـــد يفعل شيئًا من غير ثمن .. الثمن قد يكون مالاً .. قد يكون منصبًا .. قد يكون جسدًا .. قد يكون إحساسًا بالتفوق .. قد يكـــون قـــصة تحكيها لأصدقائك وعيناك تلتمعان تيهًا .. قد يكون تقديرًا للذات لا تستحقه ..
هناك ثمن دائمًا ...
وأنا لا أقبل الشيء قبل أن أعرف ثمنه...
فكر حيناً .. توقعت ردًا بلاغيًا طنانًا على غرار (لأننا أفضل مـــنكم) أو (لأنني لا أحـــب الدماء).. الخ .. لكنه اكتفى بأن هز رأسه وقال:
ـ"لأنني أريد ذلك ..

ثـم ابتـسم وغمغم بشيء في الظلام فسألته عما يقول .. قال بصوت أعلى وهو يواصل طريقه:

ـــ"كـان عـندنا شاعر اسمه (عبد الرحمن الأبنودي).. هل سمعتما عنه ؟"

ـ"لا .."

ـــ"بالطـبع لـم تسمعا عنه .. كان هذا الشاعر يقول: احنا شـعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الاول فين والتانى فين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت"

لـم أفهـم شيئًا .. فقط أفهم أنه يغلي من الحقد الاجتماعي .. هذا هو كل شيء ..

قلت له في الظلام:

ـ"برغم كل شيء .. أنت إنسان نبيل .. "

لم يرد وواصلنا تقدمنا .. مشينا نحو عشر دقائق..

بقعـة ضوء تتحرك عبر النفق .. تذيب ظلامًا ثم تغيب وسط ظلام جديد ..

صوت الخطوات ..

صوت اللهاث ..

صوت قطرات العرق تتساقط على الصخر ..

* * *

وفـي الـنهاية أدركـت أننا في قاع بئر أخرى وأن درجات صـاعدة تقـودنا للسطح.. هناك صخور مكومة بحيث تسهل لك

الوصول لأسفل الدرج ..بصعوبة منعت نفسي من الصراخ فرحًا وجرمينال راح صدرها يعلو ويهبط ..

قال (جابر) وهو يشير بالكشاف لأعلى:

ـــــ"لأسباب واضحة لن ألحق بكما .. أنتما في أمان الآن .. وداعًــا .. فقــط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا .. فلن أكون موجودًا المرة القادمة .."

قالت جرمينال في تأثر:

ــ"أنت رائع يا (جابر).. شكرًا لك .."

لم يرد واستدار ليرجِع وضوء الكشاف يحيط به كأنه رؤيا ..

لابد أنه ظل محتفظًا بتأثره حتى اللحظة الأخيرة ..

لابــد أن ابتـــسامته الخافتة لم تفارق شفتيه بينما وجهه يهوي ليتمرغ في التراب ..

لابد أنه لم يذق الدم الذي سال من شدقيه ..

لابــد انـــه لــم يدرك أنني التقطت ذلك الحجر وهويت على مؤخرة رأسه بأقوى ما استطعت ..

اضطررت لأن أقلبه على ظهره فسال الدم كالنهر من الفجوة الدامية التي صنعتها منذ ثانية..

عيــنه الــتالفة تنظــر لي في ثبات بينما تحولت نظارته إلى فتات..

الــتقطت المديـــة .. المديـــة التي سرقتها من المذبح .. من الغــريب أن مديـــة أخرى تطل من حزامه .. لابد أنه كان يخافنا بالقدر الذي كنا نخافه به وأراد أن يؤمن نفسه ...

صرخت جرمينال في هستيريا:

ـــ"لماذا فعلت ذلك ؟.. لقد ساعدنا !"

قلت وأنا أقوم بما يجب أن أقوم به:

ـــــ"وانتهى دوره عند هذا الحد !.. إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن .. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكار .. "

للأســف لن أستطيع أن أحمل جسده صاعدًا الدرجات .. كما أنــه مــات على الأرجح فلن يوفر مصدرًا للتسلية .. إذن لم يعد يهمنـــي مـــن أمره سوى هذا الشيء الذي أخذته ولففته في السترة المتسخة التي منحها لي ..

لم يكن هناك غراب .. لم يكن هناك غراب ..

لماذا تذكرت هذا الآن ؟

تــركته حيث هو وصعدت الدرجات .. ستكون كارثة لو كان قد خدعنا ..

– ٤ –

لكن انتم خلقكم سي الملك
جاهزين للملك..
ايديكم نعمت من طول ما بتفتل لياالينا الحلك
يا عم الضابط احبسني
سففني الحنضل واتعسني
رأينا خلف خلاف..
احبسني او اطلقني وادهسني
رأينا خلف خلاف

عبد الرحمن الابنودى

* * *

فتحة بين الأعشاب يصعب أن يراها من لا يبحث عنها..
تغطي الفتحة قضبان متعامدة جدل أحدهم العشب بعناية بينها لكننا عندما أزحنا القضبان وأخرجنا رأسينا، شممنا رائحة هواء البحر .. شممنا الليل المخلوط بالعطر واللحم البشري والفلوجستين ..
شممنا رائحة الدولارات وبطاقات الائتمان والخمور الباهظة

رأيــنا أضــواء يوتوبيا تحيط بنا .. على بعد خطوات مول (إيلــيت) المفــضل عندي .. أرى لافتته الملونة وزحام السيارات حوله .. نحن إذن في الحديقة الخلفية للمول .. نعم .. أرى تمثال المستحمة العارية الذي طالما حلمت بمضاجعته وأنا صبي ..

حمدًا لله !... لقد نجونا ..

ســيكون صــعبًا أن نفــسر لمــن يرانا أننا لسنا من الفقراء المتــسللين .. الأصــعب أن أخفــي هذه اليد التي بدأ الدم يتساقط مــنها.. لكننا سنقابل مصريين أو إسرائيليين وهؤلاء يمكن التفاهم معهــم .. بيــنما لا يمكــن الــتفاهم مــع المارينز الذين يطلقون الرصاص ثم يتكلمون ..

ســاعدت جرمينال على الخروج ووقفنا هناك في البرد الذي يبعثه هواء البحر، وسط أضواء المساء الملونة وتعانقنا ..

لقد تمت المغامرة ونجونا !

لقد دخلنا الجحيم وعدنا منه. دسسنا رأسينا بين فكي التمساح وخرجنا ..

قلــت لهــا ونحن نشق شوارع (يوتوبيا) شبه الخالية في هذه الساعة:

ـــ"يمكن القول إننا لم نفقد أي شيء .."

قالت وهي تشهق في انفعال:

ـــ"سوى ساعات قاسية"

ـــ"لابد أنهم قلبوا الدنيا علينا"

ـــ"سوف يفهمون ويغفرون"

قالـــت وهـــي تـــرتجف كلمـــات لم أتبينها فسألتها أن ترفع صوتها.. قالت:

ــ" احنا شعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الأول فين والتانى فـــين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت .. ألم يكن شاعره يقول هذا ؟"

ــ"بلى .. وهو صادق على طول الخط !"

* * *

كانت الاحتفالات صاخبة بعودتنا..

في البداية هناك طبقة واهنة من اللوم والتبكيت .. طبقة ذابت على الفور ..

ثم يبدأ الاحتفال الحقيقي بالبطلين العائدين ..

أنهـــار مـــن الخمر والفلوجستين سالت .. حكيت قصتنا ألف مرة وفي كل مرة أضيف تفاصيل جديدة تثير الخيال .. لقد صرت رجلاً .. ذهبت إلى هناك وعدت بيد أحدهم ..

كـــنت أحكي لهم عن (جابر) الأحمق .. (جابر) الساذج الذي لم يستطع أن يفهم قواعد اللعبة ..

حكـــيت لهـــم عـــن صفية المسلولة التي قاومت كأنها الملكة كليوباترا . يجب أن يتناسب حجم المقاومة مع قيمة ما يدافع المرء عنه .. بالنسبة لحالتها لم يكن هناك داع لمقاومة من أي نوع..

قال راسم وهو ينفث الدخان:

ـــــ"يـــتوقف الأمر على قيمة ما يدافع المرء عنه بالنسبة له وليس بشكل مطلق .. لو رأيت أمي وهي تدافع عن الفأر الصغير

الألـــيف الـــذي تـــربيه عندما أراد أبي أن يلقي به في البالوعة، لحـــسبتها تدافع عن أيقونة مقدسة .. بالنسبة للفتاة كانت تدافع عن أهم شيء لديها .."

ــ"عن بكارتها ؟"

ـــــ"بـــل عن إرادتها .. عن حرية اختيارها .. هذا هو فأرها الخاص"

أطلقـــت سبة بذيئة .. تبًا لك عندما تعبث الماريجوانا بخلايا مخك. إنها تجعل الناس أكثر ظرفًا لكنها تجعلك أكثر تحذلقًا وميلاً للتفلـــسف .. تجعلـــك ابن كلب حقيقيًا .. لكل واحد منا فأره الذي يعتبره أثمن شيء في العالم. ربما يراه الآخرون مجرد فأر حقير لكـــنه بالنسبة لك أهم شيء في الوجود. ترى ما هو فأري المدلل الأليف؟

أنا فأري المدلل الأليف!

لوحت بالذراع التي قمت بتحنيطها وتجفيفها:

ــ"في صحة جابر"

ــ"وصفية"

ــ"والسرجاني .."

ــ"أجدع ناس.."

ومـــن جهـــاز الهـــاي فـــاي تـــدوي أغنية جديدة من أغاني الأورجازم:

"ضعي عنقك على الصخرة المقدسة ..

ضعي حياتك على الصخرة المقدسة ..

أنظري لنصل السكين وهو يهبط فوق الوريد الثري
خائفة ؟.. أنا أحب هذا يا صغيرة ..
كـــذا أنـــت أقوى من الطبيعة ذاتها، لأنك تضخين الدماء في عروقي من جديد ..
أنتشي ..
أفيض ....
في لحظة كتلك أحبك حقًا ..
ضعي عنقك يا صغيرة ..
ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

وتـــنهض ماهي لتطوح بحذاءيها وتأتي بحركات مجنونة .. تمـــيل بعـــنقها كأنهـــا تنيمه على صخرة ... تطوح شعرها يمينًا ويسارًا ..

تسقط على الأرض في وضع استسلام كأنها تتأهب للذبح..
كاهنة يوتوبيا الشقراء.
ترتفع موسيقا الأورجازم ونغيب وسط النيران الخضر ...

"ضعي عنقك يا صغيرة ..
ضعي عنقك"

- ٥ -

قطّــر كــل روائــح الكــون .. قطّــر عبق السراخس في المــستنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطّر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطّر البخور الــذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطّر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطّر عبق كل غانيات باريس راقــصات الكان كان .. قطّر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطّر الأحراش ذاتها .. قطّر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطّر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت ....

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلــق ذقنـــي .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمـــة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمــزق كــل هذا بالشوكة ..ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتــثاءب .. أضـــحك .. أبـــصق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس إصـــبعي فـــي حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي علـــى البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويـــسكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

أريكـــة .. أتقلـــب على البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعـــيات يوتوبيا ...أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات علـــى جلـــدي .. أنتشي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمـــشي عاريًا في الردهة .. ألبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحـــم شـــعارات تقـــول: اقـــتلوا البيض .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم ..

ســـاعة واحـــدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

لكن الهاتف دق ..

كان هذا راسم يخبرني بأمور غريبة:

ـــ"هل تعرف أن الطائرات معطلة ؟"

ـــ"كلها ؟..لماذا ؟"

حكـــى لـــي قـــصة عجيـــبة عن مغامرة قام بها الأغيار من يومـــين.. لقد هاجموا قافلة هائلة تحمل البايرول عبر الصحراء .. انـــت تعرف أنهم يقومون بإنزاله من حاملات البايرول غربًا. لقد هوجمت القافلة وتم أسر سائقيها . وهو عمل لم يحدث من قبل ولم يتحـــسب له أحد. النتيجة هي ارتباك عام. ظل السائقون في الأسر بضع ساعات ثم تم إطلاق سراحهم وقالوا إنهم لاقوا معاملة حسنة

لم يفهم أحد سبب هذه المغامرة ولا جدواها.

فقـــط عـــندما تـــم مـــلء خزانات الطائرات وحاولت طائرة (مـــصطفى بيه) البونانزا الرياضية أن تحلق لم تستطع.. بالتدقيق فـــي الأمر اتضح أن ما في خزانها ليس وقودًا .. لا توجد قطرة

بايـــرول فـــيها. لقـــد قـــام أحدهم بملء خزانات البايرول بسائل المجاري !.

التحقيق قال إن هذا ما حدث عندما اختطف السائقون.. لقد تم إفراغ الخزانات بالكامل، ثم جاءت عربات كسح الترنشات اللعينة وقامت بملء الخزانات بمحتواها الكريه.

النتيجة هي أن محركات الطائرات تلفت كلها ..

محركات السيارات تلفت كلها. هذا ما اكتشفه من جربوا ملء خزانات سيارتهم بهذا البايرول المغشوش.

قلت لراسم ضاحكًا:

ـــــ"كـــنت ســـأندهش جدًا لو حلقت الطائرات بوقود من الـــ (...).."

وانفجرنا ضاحكين ... وتبادلنا ألف نكتة على هذه الفكرة.

قال راسم بعد ما استنفد قدرته على الضحك:

ـــــ"كل هذا جميل، لكن الوضع ليس مريحًا على الإطلاق .. إصـــلاح الطائرات والسيارات يستغرق وقتًا .. هل تعرف معنى هذا ؟.. معناه أننا معزولون فعلاً !"

معزولون فعلاً..

ظلت الكلمة تتردد في ذهني زمنًا ..

* * *

ازداد الأمـــر سوءًا عندما جلس معنا مراد على مائدة الغذاء. قال للارين:

ـــــ"لا توجد مواصلات .. الغريب أن رائحة الغائط تتصاعد من كل المحركات. رجال المارينز قلقون وقد اتصلوا بوحدات الأسطول السادس .. لابد من وجود باب خلفي للفرار كما تعرفين، وهذا الباب أغلق بتعطل الطائرات .. وعدوهم بأن يرسلوا لنا بعض طائرات الهليوكوبتر بمجرد أن تقترب الحاملة (جيفرسون) من مياهنا الإقليمية .. هذا يستغرق يومين .. "

رائحة الغائط من كل المحركات ؟.. بدا لي هذا مضحكًا وإن لم أكلف نفسي بالضحك. سألته في عصبية:

ـــــ"هل تتوقع أن يحدث شيء في يومين ؟... نحن هنا منذ دهور .."

قال مراد:

ـــــ"هناك كلام يتناثر هنا وهناك... ثمة شيء يتحرك في أرض الأغيار .. إنهم يتحركون ضدنا.. "

ـــــ"وما الجديد ؟.. إنهم يفعلون هذا مرتين في العام ويخبو حماسهم بسرعة .."

ـــ"هذه المرة هم أعنف وأكثر تصميمًا وتنظيمًا .. يقولون إن أحدهم ساعد اثنين من يوتوبيا على النجاة من أرض الأغيار وجعلهما يعيشان تحت سقفه، لكنهما قتلاه وقطعا يده بعد ما اغتصبا أخته العذراء !.. وجدوا جثته في نفق يستخدم للتسلل إلى هنا. القصة تسللت إلى كل كوخ وكل زقاق هناك وأشعلت النفوس.. لقد تحملوا الكثير لكن يبدو أن هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.. "

رحـــت آكـــل محـــاولاً ألا يبدو تعبير مريب على وجهي ..
رسمت على وجهي تعبير رجل لم يقطع يد واحد من الأغيار.
قالت لارين في استخفاف:

ــ" إنهم قد سُلبوا كل شيء وظلوا صامتين فماذا يحدثه موت واحد من فارق ؟.. لا أظن الثورات تقوم لأسباب كهذه .. "

ــ"بل لا تقوم إلا لأسباب كهذه .. الصخرة تحملت الكثير من الـــضربات لكنها تفتتت عند الضربة الخمسين .. لم تكن الضربة الخمسون هي ما فعل ذلك لكن كل الضربات السابقة .. "

ــ"هذه قصص أطفال .."

ــ"وهل الجموع الغاضبة سوى أطفال ؟"

* * *

انتم بعتوا الأرض بفاسها ..بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر.
والريحه سبقت طلعة أنفاسه
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والـــــضرب بـــبوز الجـــزمة وبـــــسن الكعـــــب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

كان اسمه جابر .. وقد كان أحمق لم يفهم قواعد أي شيء... بـــشكل ما يستحق الفقراء كل ما هم فيه .. إنهم أقل ذكاء من آبائنا .. إنهم ضعيفو الإرادة خاملون .. تركوا نفسهم يُسرقون كل هـــذا الـــزمن من دون أن يحركوا إصبعًا .. هم بهذا انحدروا إلى درجـــة أقـــل من مرتبة الحيوان .. حتى النحل يلدغك لو حاولت ســـرقة عـــسله، والدجاج ينقر أظفارك لو حاولت سرقة البيض .. بينما هم ظلوا خائفين صامتين ..

ما دامت الحياة ممكنة فلنبق صامتين ...

ما دام عشاء الليلة موجودًا فلنبق صامتين ..

لهـــذا لا احمل أي تعاطف نحوهم وقد زادتني هذه المغامرة مقـــتًا لهم .. حتى (جابر) هذا – يرحمه الله – كان مجرد متحذلق لا يكف عن الثرثرة ولا يفعل أي شيء ..

(مايـــك رودجـــرز) رجـــل المارينز جاء إلى دارنا ولم يكن متأهـــبًا للمزاح. عرفت أنه يقوم بجولة على كل القصور هنا مع رجـــال فـــي سيارة جيب عسكرية لم تتلفها مياه المجاري. قال إن علينا ألا نغادر بيوتنا إلا للضرورة .. قال إن علينا ألا نقلق . كل شيء تحت السيطرة ..

هـــذه العبارة وحدها (لا نقلق فكل شيء تحت السيطرة) تعني أن نقلق جدًا ..

سأله (مراد) عما هنالك .. فقال إن الفقراء ثائرون .. ثائرون ويتقدمون في جموع منظمة عبر الصحراء ....

ثم أضاف في لهجة ذات معنى:

ـــ" لا أريد أن أثير ذعر أحد لكن ربما نطلب منكم الفرار في أية لحظة !"

ـــ"ومتى ؟"

ـــ"عندما تصلنا طائرات الهليوكوبتر التي طلبناها .."

قال له مراد في توتر وقد بدأت شفته السفلى ترتجف:

ـــ"يجب أن تحموني .. سوف أدفع لك مكافأة خاصة .."

قال مايك بطريقته الأمريكية التي تستنسخ رعاة البقر:

ـــ"أنا أتقاضى راتبي عن حماية يوتوبيا كلها، وهو كاف لي.. لا تقلق"

كدت أصيح في مراد: لماذا ترتجف ؟

لم لا تكون أكثر كبرياء ؟

لم لا تكون أكثر وقارًا ؟

ما أتوقعه من أبي – لو كان حقًا أبي – هو أن يغضب ولا يخاف .. يحتقر ولا يرتجف .. يغتاظ ولا يقلق.. يشتم ولا يلوم.. الرحيل ؟...

الشتات ؟

هذا لن يكون .. هذه أرضي وهذا عالمي .. ولدت هنا .. لو كان أبي قد سرق هذه الحقوق فهي قد صارت لي بحكم الوراثة، ولن أتخلى عنها من أجل أمثال (جابر) والمتسولين وعاهرات الأزقة ..

* * *

هرعت إلى البوابات ..

لارين تناديني ..
جرمينال تناديني ..
رودجرز يقول لي أن ابتعد ..
لكنـــي أشـــق طريقـــي بين الجند الذين اتخذوا أوضاع تأهب للقتال وأعدوا قنابل الغاز والبازوكا ..
لا أحـــد منهم يجسر على التعرض لي لأنهم يعرفون من أنا، لكنهم يحاولون منعي في غير حماس..
أرفع رأسي لأرمق خارج البوابات ..
فأشهق ..
رأيـــتهم هـــناك على مدى الأفق قادمين .. يحملون المشاعل ويصرخون غضبًا ..
بعد ربع ساعة سيكونون هنا ..
سيكونون بيننا ..
بيومـــي ومتولي وعبد الظاهر والسرجاني وصفية وعواطف وعـــزة ومينا وزينهم وشحاتة وعباس وصفوت وعبد الله ومرسي وعدنان وزلطة و ....
كلهم هنا ....
مايك يقول لي:
ـــــ"ابتعد الآن من هنا .. اتفقنا ؟.. إن بعض الطلقات سوف تطفـــئ حماسهم .. بعد أول خمسمائة قتيل سوف ينظرون للأمور بشكل مختلف..."

انتــزعت البندقــية• الآلــية مــن يد جندي المارينز الواقف جــواري، وصوبتها نحو كتلة البشر القادمة في الأفق .. لم أفطن إلــى إننــي لم أجرب هذا من قبل، ولم تفتّ من شجاعتي الضربة القوية التي تلقيتها في ساعدي لدى الارتداد ..

هكذا رحت أطلق النار ..

أطلق النار ..

أطلق النار..

"في لحظة كتلك أحبك حقًا ..

ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

أطلق النار ...

أطلق النار..

" سففنى الحنضل واتعسنى

رأينا خلف خلاف..

احبسنى او اطلقنى وادهسنى

رأينا خلف خلاف"

تمت

تجليات أدبية

كنت أقول لهم:

ـ"هأنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب ..! لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات مالتوس وجمال حمدان ونبوءات أورويل وهـ. ج .ويلز ..لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتنامون ... الآن أنا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي، وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغني عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيراً حتى لو إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم"!

لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق..

لا يهتمون البتة..

إنهم يبحثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية و...

ولا يشعرون بما وصلوا إليه..



